رقصات أخرى

رقصات أخرى

أشرف مراد

تصميم الغلاف:

رقم الإيداع:26643 /2017

I.S.B.N:978- 977-6640-23-8

الطبعة الأولى 2018م



الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

نائب المدير : رامي غزالة

شؤون إدارية : رقية عبد الله

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

أشرف مراد

رقصات أخرى

رواية



الزمالك_ القاهرة

البهو الرئيسي لمنزل السيدة " غادة ".. إحدى الليالي الصيفية ..

(1)

بينما كانت اللحظات الأخيرة من تلك الليلة توشك أن تطوي آخر خيوط الظلام فتحمله وترحل معه، كان العاشقان لا زالا يتراقصان معًا وكأنهما لم يرتويا عشقًا بعد.

"هي" وأن كانت قد اعتادت أن تلهث وراء اللحظات التي تجمعهما، تطاردها في محاولة يائسة لإجبارها على التوقف، فإنها ماكانت لتكسب هذا السباق أبدًا، فمن ذا الذي يمكنه أن ينتصر لوهم قدرته على إيقاف الزمن؟

فساعات تلك الليالي ودقائقها وثوانيها كانت تبقى دائمًا على وعدها بأن تمضي سريعًا في أوقات الفرح، وها هي الآن قد شرعت في لملمة شتتاها على ضوء خيوط الصباح، حتى قبل أن تشبع رغبة تلك المرأة العاشقة الغارقة في نهر من الياسمين.

لم يكن كافيًا أن تبقى الموسيقى الحالمة التي طالما تراقصا على نغماتها دائرة، لم يكن تمايلها كشمعةٍ تتراقص على الحائط البعيد أو مابُعثرَ في الأرجاء من عطرها الذي طالما سكن ذاكرتهُ طويلاً كلما همَّ بتقبيل يدها القريبة كافيًا أيضًا، كان موعدًا محسومًا للرحيل ما كان ليغيره شيء.

فتلك هي الطقوس المعهودة التي دائمًا ما كانت تصاحب لقاء السيدة ال"جميلة" "غادة" بحبيبها الأربعيني العاشق "كريم".

غير أن الجميلة "غادة" ليست هي المرأة الوحيدة التي يكنّ لها ذلك الرجل حبًا مجنونًا عجز عن فهمه أو تفسيره -هذا إذا ما كان قد أراد يومًا أن يفهمهُ أو يفسرهُ، على الرغم من أنها دائمًا ما تفشل في كبح جماح غيرتها كلما أوشكت إحدى لياليهما معًا على الانقضاء، فتبدو متمسكة ببقائه، محاربة رغبتهُ الأكيدة في رحيله، ذلك الرحيل الذي تقتضيه الضرورة والتي لا يملكان أن يغيرا ما تحتمهُ وتقره، وفيما كانت تقف قريبة منه قالت:

مازال لدينا بعض الوقت لنكمل رقصتنا، رددت كلماتها تلك بينما سبقتها خطواتها إلى مشغل الموسيقى لتديره، ثم ألقت بنفسها بين أحضانه، فبدا الأمر وكأنها امتلكته حتى كادت تحرمه خيار الرحيل.

أما هو فقد كان كعادتهِ يصاب بالاضطراب عندما يحل موعد رحيله، فيقع صريع نقيضين دائمًا ما كانا يزورانه في نهايات لياليه التي اعتاد أن يقضيها معها.

اقتربت منه ثم وضعت إحدى يداها فوق عنقه بينما وضعت يدها الأخرى أسفل ظهره تقربه إليها حتى باتا متلاصقين تمامًا.

لكنه وبعد محاولاتٍ مضنيةٍ كي يستعيد قرارهُ المسلوب بالرحيل اضطر إلى الابتعادِ قليلًا قبل أن يخبرها بأن عليه أن يذهب الآن، حيث لم يعد بإمكانهِ البقاء لوقتٍ أطول بعد أن أوشك ضوء الصباح أن ينتشر خلال النافذة الكبيرة في أقصى يسار الغرفة. تلك النافذة التي طويت عنها ستائرها فسقط بعضٌ من الضوءِ فوق جزء من أرضية الغرفة الخشبية فزادها تبريقًا.

أردف قائلاً: أنتِ تعلمين كم أحبك ولكني أحبها كذلك، أعني أننا قد أمضينا ثمانية عشر عامًا كزوجين. أنا أحب ابنتي الشابة أيضًا. نعم .. بإمكان المرء أن يتسع قلبه لحب امرأة أخرى غير زوجته وأن أمضي معها عمرًا لا يذكر فيه الكثير من لحظات السعادة. فمَن منا يختار مَن يحب؟

أشعلت تلك الكلمات غضبها. أبعدت يديها ثم ابتعدت قليلًا وبدت متحفزة لاستفزازهِ محاولة إثارة غيرتهُ وحنقهُ فسقط قناع هدوئها الزائف. قالت:

تبدو وكأنك تخشى عقابها أو أنك تظن أنها تنتظر عودتك، لو أنك تمسكت بقدرٍ من الواقعية لأمكنك بسهولةٍ استيعاب كذبة انتظارها تلك. ولكنني أرى أنه لا بأس إذا ما كانت تشارك صديقكما القديم إحدى الرقصات بين حين وآخر.

وفي تلك الحالة لابد وأنها ستكون متعبة الآن، ربما غلبها الإرهاق فخلدت إلى النوم، يا حبيبي استمع إليَّ جيدًا "أنا لا أريدك أن تكون رجلاً طيبًا مثل كثير من الرجال".

عند ذلك تبدل وجهه الهادئ إلى وجه عابس اعتراه الغضب، وإن حاول جاهدًا أن يبدو متماسكًا، لكن كلماتها حتمت عليه إعلان الرحيل في تلك اللحظة، بدا وكأنه قد اتخذ قرارًا صعبًا دون تفكير، فراحَ يؤكد لها على أن لا بأس من تذكيرها بكلماتها من جديد، فربما نسيت بأن البقاء داخل المساحات التي تسميها رمادية، هي السبيل للإبقاء على روابط الجميع.

- أعلمُ أنكِ تحبينني، بل أثق في ذلك كل الثقة، مثلما أحفظ أسئلتك التي تسألينها في كل مرة عندما يحين موعد الرحيل.

أنا أحبكَ فلماذا يجب أن تتركني؟ لماذا يجب أن تعود إليها؟ لماذا لا تبقى إلى جواري مثلما بقيت إلى جوارها سنوات؟

وإذًا فأنت تسخر مني؟ سؤال أطلقته ولم تكن تنتظر الإجابة، بل كانت تمهد لإطلاق نوبة هجوم ناعمة، علني أذوب فأبقى.

قالت في نبرةٍ مستسلمة:

- عليكَ أن تدرك شيئًا هامًا، أنتَ تؤلمني كثيرًا بنوبات رحيلكَ المتتالية .. حتى إنني قد ظننتُ في أوقاتٍ كثيرة أنكَ لن تعود أبدًا.

فأنتَ تغضب، ثم ترحل ثم لا تلبث أن تعود على الرغم من أنكَ تدركُ تمامًا مدى كرهي للتصنع والمواقف الغامضة.

بدا متأثرًا بما قالت لكنه اندفع إلى رفض اتهامها له بالتردد والضعف، فقد رآها مخطئة تمامًا، فهو لم يكن يومًا من هواة التصنع، كما أن محاولات رحيله السابقة ما كانت إلا تعبيرًا عن الاستياء من عصبيتها وعنادها.

قال لها: إنكِ دائمًا ما تراوحين اهتمامكِ بين تخليدي حد تنصيبي ملكًا في أسطورة، وبين إهمالي حد تركي أجف كقطعة خبزٍ يابسةٍ.

قد كنتُ جادًا في رحيلي أحيانًا، لكن يقيني بأنكِ تحبينني حبًا مجنونًا دائمًا ما كان يحملني إلى العودة بعد أن يقتلني الحنين إليكِ ويهزمني الشوق إلى لسعات أنفاسكِ الساخنة.

أخفق في الابتعاد وأقتل مراتٍ ومراتٍ، وبعد العودة أهمُّ إلى دفن رأسي بين حنايا صدرك وأذوبُ عشقًا في أحضانكِ، أنسى الغضب بينما أبعثر مئات القبلات الحانية عند أطراف شفتيكِ غارقًا في أعماقكِ اللا متناهية .

فهل يبدو ذلك تصنعًا؟ أتراه ولعًا بالمساحات الرمادية؟ كلا يا حبيبتي فأنا أهيمُ بكِ عشقًا، وأنا مثلكِ تمامًا أحب اللونين الأسود والزهري وأكره الرمادي!

كانت كلماتهِ الساحرة تلك قد أذابت جليد لحظة الافتراق، هدأت كطفلة رقيقة ثم عاتبته.

- ولكنك تبدو دائمًا كمن يتلهف للعودة إليها، هذا ليس عدلاً، لا زلت أذكر تبريرات غيابكَ دائمًا.

- قلتُ لكِ مرارًا إنني أحبكِ وأحبُ زوجتي، حبها يبقيني معكِ كما أن حبكِ يبقيني معها، أحب ابنتي كذلك، ولكني ما إن أغيبُ عنكِ حتى أعود من جديد، كُفي عن اتهامي بالضعف فأنتِ تعلمين أن اتهامك ليّ غير صحيح.

- هكذا تختار إجاباتك، لكنك دائمًا ما تغفل عن عمدٍ الاستجابة لرغبتي في أن يكون لديَّ طفلة أنا أيضًا، فتسرع الخطى إلى الخارج بينما تردد ما اعتدت قوله بينما تغادر.

"في المرة القادمة سيكون لدينا فرصة أفضل للحديث عن ذلك، يختفي صوتك تمامًا مثلما تختفي إجابتك عن سؤالي، في كل مرة تدفعني للجنون فأهرع خلفكَ لأذكركَ بذلك مجددًا، وبينما تسرع خطواتك إلى الخارج .. أعيدُ على مسامعكَ تمنياتي بأن تكون زوجتكَ قد انتهت من رقصتها الخالدة مع صديقك القديم، وها أنا أُؤَكِّدُ لكَ مجددًا وأنبهكَ أيضًا إلى رفضي لأن تكون ضمن فئة الرجال الطيبين .. حد البلاهة.

هل تسمع ضحكاتي؟ أسمعها الآن تدوي في الأرجاء وملء أذنيك، أما أنا فسأعود لأكمل رقصتي منتشية فخورة بما أملك من جمال آسر ..

***

(2)

صالة الاستقبال في منزل " العائلة " في الضاحية نفسها ..

اعتاد "كريم" أن يبحث في محتويات حقيبة أوراقه بينما هو جالس على أحد المقاعد الوثيرة بصالة الاستقبال بمنزله، يترقب خروج إحداهما من غرفتها بين الحين والآخر، بعد أن فرغ لتوِّه من احتِساء قهوته، عامدًا إلى أحداث بعض الضجيج في تحضيرها وكأنه قد أراد أن يشعرهما بوجودهِ.

وبينما هو شارد لبرهةٍ، يخرجُ أوراقهِ من حقيبته الجلدية ثم لا يلبث أن يعيدها مرة أخرى دون تنبه لما يقوم به، تُقبل الابنة "ندى" و هي شابة في السابعة عشر من عمرها، "جميلة" الطلة رقيقة الملامح بشرتها بيضاء، وعيناها واسعتان، شعرها أسود داكن وقد ارتدت بنطالاً أزرقًا (جينز) وقميصًا زهريًا ذا أزرار، قبلته بشوقٍ جارف وكأنه كان غائبًا لأيامٍ.

أما هو فقد أخذها إلى صدره واحتضنها بقوةٍ مرحبًا، دون أن ينسى أن يؤكد على أنه دائمًا ما يحرص على التواجد قريبًا

منها، معللاً غيابه لبعض الوقت بانشغاله بأعماله، تلك التي لا يستطيع أن يختار توقيتات إتمامها، فالأمر يرتبط إلى حدٍّ كبير بارتباطات العملاء، كما أن إبرام العقود لصالح هؤلاء يحتاج إلى قدر كبير من المثابرة حتى يحصل على أموال جيدة.

بل إن الأمر قد يحتاج - حسب تأكيداته - إلى ما هو أكثر من البقاء خارج المنزل حتى ساعة متأخرة من الليل من أجل إتمام إحدى الصفقات.

لكن الابنة التي اعتادت سماع تلك المبررات الواهية لم تكن لتتوقف أمام ما يسوقه والدها كثيرًا، فهى تعلم كل ما يدور من حولها، وكثيرًا ما تمنت أن تخبره بأن عليه أن يتوقف عن اختلاق الحكايات الوهمية تلك التي لا تقنع أحدًا ولا يصدقها سواه.

وهي وأن كانت تقدر له معاناته من أجل أن يوفر لها حياة أفضل - مثلما تذكرها أمها دائمًا، وتعيد تذكيرها بقصة فقدان وظيفته بينما كانت طفلة غضة لم تكمل شهرها الأول في تلك الحياة.

وكيف أنه قد عجز حينها بسبب ذلك عن تدبير أقساط المنزل والسيارة - إلا أنها لا تنسى أيضًا كيف ساند كل منهما الآخر حتى تجاوزا تلك الظروف القاسية.

كان المنزل القديم الذي ورثته الأم عن جدها بمثابة طوق النجاة، فهي قد شرعت قبل أيام من فقد زوجها لوظيفته في تجديد ذلك المنزل المتهالك، وقد بدأ هو بالفعل في إنفاق ما

يدخر من الأموال من أجل تحويل المبنى إلى مركز تدريب ونادٍ صحي يستقبل أثرياء الحي مثلما أرادت الزوجة "جميلة"، فقد كانت ترى في ذلك سبيلاً لعبور أزمتهما المالية.

لكن ذلك الحلم قد توقف أيضًا، ولم يكن هناك سبيل لإكماله إلا بإقناع الصديق القديم "آدم" بإقراضهما بعض المال.

- أعلم كم أدهشتكَ موافقته على مَنحكما ذلك المال، لكنكَ تدرك بالتأكيد كما هي رائعة، حتى إنه بإمكانها تطويع كل شيء طبقًا لإرادتها، قد يبدو ذلك منطقيًا إلى حدٍ كبير لكنها مع ذلك عجزت دائمًا عن تطويعك أنت أيّها الأب الغائب – قلت ذلك بصوت خفيض بالطبع.

- أنتِ تعلمين كيف يبدي الأثرياء قدرًا كبيرًا من الحرص على أموالهم، لكنه ولحسن الحظ قد استعاد تلك الأموال بالكامل كما أن والدتك قد منحته بطاقة اشتراك مجاني دائمة بالنادي الصحي عرفانًا بالجميل، لكم تدهشني براعتها في كل شيء.

كانت الفتاة على ثقة من براعة أمها لكنها كانت أكثر ثقة في قدرتها على الاحتمال والمواربة.

- و لكنها حزينة يا أبي ألا تلحظ ذلك؟

– بل إنها في كامل سعادتها يا حبيبتي، أنا أحب تلك المرأة الطيبة، إننا دائمًا ما نبدو كمحبين، ألم تلحظي ذلك؟

ما إن يغادر أحدنا حتى ينشغل الآخر في البحث عنه، إن عقلك الشاب يا فتاتي الرقيقة لا يمكنه أن يدرك ما يربطنا من تفاهم وانسجام.

- لكن الذكريات لا تكفي يا أبي ¯ ودت لو قالت ذلك بصوتٍ مسموع ¯ ودت كذلك لو أن بإمكانه أن ينتبه إلى أن حيله لم تعد تقنع أحدًا

ثم أردفت، ولكن هل تعلم أن الصديق القديم "آدم" قد صار يداوم على التريض باستمرار في نادينا؟

أما "هو" فقد استقبل ما أشارت إليه بمشاعر ممزوجة ما بين التوقع والسخرية، فهو قد تعلم من تجاربه الحياتية أن الأثرياء هم أكثر الناس ولعًا بالدعوات المجانية والهدايا.

ولكنه لم يعبأ بما قالت في النهاية فقد قرر أن يركن لفكرة أن الزوجة لابد وأنها قد أوكلت أمر تريضه لإحدى المدربات!

أما الابنة فقد أصبحت الآن أكثر يقينًا من أي وقتٍ مضى بأن أبيها ماضٍ في طريق العزلة مرتكنًا إلى قناعاته التي تبدو غريبة في كثير من الأحيان بل وغير منطقية على الإطلاق.

وتتساءل في صمت ماذا فعلت تلك المرأة برأسك يا أبي؟ أما وقد أصبحت هي أكثر توترًا وعصبية فقد قررت أن تستأذنه في الانصراف.

أما هو فلم يستطع أن يخفي رغبتهِ في أن يسألها:

¯ وفيمَ العجله يا حبيبتي؟ ألا تبقي قليلاً؟

كان قد نسى أيضًا أن اليوم هو موعد الحفل السنوي الراقص الذي يقيمه النادي لأعضائه مثلما يروج من خلال هذا الحفل لحصول آخرين على عضويات جديدة.

لكن الابنة قد أدركت أن عليها أن تنبهُ إلى الحضور خشية أن يكون قد نسى تأكيده على الحضور من قبل.

- لابد وأنكَ ستأتي مبكرًا أليس كذلك؟ سيكونا كلاهما هناك

"آدم" و"غادة" وأمي الجميلة أيضًا، إنها فرصتنا للم شملكم من جديد، أنا على ثقة من إنك قد أجلت أعمالك لتلك الليلة ـ قالتها وهى على يقين بأن ليس ثمة أعمال تؤجل في تلك الليلة، فالجميلة "غادة" ستكون هناك - أنتم لم تلتقوا جميعًا منذ أفتراقكم قبل شهور قالتها بصوت مسموع بينما تتأهب للرحيل.

شرد بذهنه مجددًا وكأنه يسترجع كيف كان الفراق قاسيًا، وكيف سعوا جميعًا لشغل تلك المساحات الرمادية في حياة كل منهم، يفيق على سماع جملتها الأخيرة لبرهةٍ قبل أن يطمئنها.

- أنا قادم يا صغيرتي اطمئني ـ قالها بصوت عالٍ حتى تسمعه من الخارج بعد أن رحلت ـ وداعًا.

***

(3)

مركز التدريب – حيّ الزمالك – مساء ليلة صيفية

من المعتاد في تلك الليالي الاحتفالية أن يخلى معظم المكان من الطاولات حيث تُجهز المساحة في المنتصف كحلبةٍ للرقصِ، انطلق صخب الموسيقى ممزوجًا ببعض من الضحكات النسائية التي بدت وكأنها النغمات الأكثر ملائمة لأغنية "piece of me" لمطربة البوب الأمريكية الشهيرة "britney spears" التي كانت تدور أغنيتها تلك في شاشتي العرض إلى يمين ويسار البار الخشبي دون صوت، أما الهمهات النسائية وسحب الدخان التي تحيط بالراقصين فهي جزء من الطقوس الاحتفالية الدائمة التي دائمًا ما تكون حاضرة في تلك المناسبة السنوية.

لكن ذلك كله سرعان ما تبدَّل، فعمَّ الهدوء الحالم مع انسياب نغمات موسيقى الفالس الرومانسية إلى الأسماع،

فتحول الصخب هدوءًا والضحكات الصاخبة إلى ابتسامات رقيقة ثم أن سُحب الدخان قد هدأت تمامًا وكأن رياحًا حاملة قد دفعتها بعيدًا، فصارت الوجوه أكثر وضوحًا رغم خفوت الأضواء.

كان "آدم" ذلك الرجل الأربعيني الذي لا يخلو شعر رأسه من بعض الخصلات البيضاء في قمة أناقته في تلك الليلة، فحلته الرمادية الداكنة وقميصه الأبيض كانا يلائمانه تمامًا، لكنه ما إن اصطحب الزوجة الأم ليرقصا سويًا حتى تحولت الأنظار نحوهما، كانت عيناها الجميلتان الآثرتان ذاتا اللون العسلي الفاتح ذاتا قدرة ساحرة على اجتذاب الحالمين.

وإن أمكن لبعضهم قراءة ما يحويانه من أحزان فلم يكن ذلك ممكنًا للآخرين المفتونين بالجمال الظاهر دون اختِراق لما هو خافٍ وراء الضحكات من حكاياتٍ طويلة بائسة.

بدت "جميلة" في فستانها الأبيض الطويل وشعرها الذهبي المصفف وحذائها high hill وكأنها إحدى نجمات سينما الستينات.

كانا يتراقصان كصديقين قديمين عادا ليتعارفا من جديد، فقد كانت أجواء افتراق الجميع ما تزال قائمة لم تختفي بعد، كانت تتساءل مئات الأسئلة: هل نعود مثلما كنا؟ هل يعبر الجميع تلك الأزمة؟ ثم ماذا لو تجاوز أحدنا مساحته؟ لكم كانت تجربة مريرة تلك التي مرت بنا جميعًا.

أما "غادة" فقد وقفت في أحد الأركان البعيدة قليلًا تتبادل حديثًا هامسًا مع صديقة لها، وكانت عيناها مسلطتين على

الزوجة بحيث يمكن ملاحظة لمعانهما قبل أن يتحولا فجأة نحو باب الدخول، رأته فهتف قلبها فرحًا وإن حاولت أن تخفي ملامح وجهها وأصوات دقات قلبها التي صارت تسمعها بعد أن عاد ذلك القلب ينبض من جديد، ما كل هذا الفرح!، تماسكي قليلًا ¯ قالت هامسة لنفسها وقد أوصتها بالتحفظ ¯ اهدئي قليلًا فالرجال يلهثون خلف المرأة الجادة المتعجرفة، تذكري دائمًا تلك الحكمة.

كان "كريم" كعادته في الأشهر القليلة الماضية قد أصبح أكثر تعلقًا بعالمه الخاص، ينقله معه أينما ذهب، في مكان يزدحم بالرجال والنساء وتعزف فيه الموسيقى يرى فقط من يريد رؤيته، يحتفظ بموسيقاه الخاصة ووقع نغماتها التي لا يسمعها سواه.

رآها كما اعتاد أن يراها قبل شهور، إنها المرأة الساحرة التي هجرته قد أقبلت من جديد، ربما لم يكن هجرًا قدر ما كان مصيرًا محتومًا قد وقع دون اختيار منهما، لقى في فراقها ما لاقاه وبقيت آثار معاناته مرسومة على وجهه لم تتبدل سوى الآن.

رآها، بإمكانه أن يشتم رائحة عطرها المميز دائمًا، بل رائحة أنفاسها الملتهبة، سرعان ما انتهت الرقصة بعد أن استغرق وقتها سابحًا في خياله، ما أوقفه عن المضي طويلاً في تلك المشاعر المتناقضة المختلطة ما بين أحاسيس الفرح والاستغراب وبعضًا من مشاعر الغيرة التي لم تدم.

قطع إقبال "جميلة" و"آدم" نحوه تضارب المشاعر واضطرابها، قبَّلته ثم صافحه الصديق القديم.

كانت "جميلة" وبينما هي في الطريق لملاقاة زوجها قد أومأت برأسها مرسلة تحية صامتة إلى "غادة" أما "آدم" و"كريم" فقد كانا متلهفين لرؤية تلك اللحظة التي يذوب فيها الجليد.

ردت "غادة" التحية بابتسامة رقيقة، وهو ما دفع "جميلة" إلى أن تطلب من "آدم" دعوتها لطاولتهما الصغيرة الموضوعة في أحد الأركان، بينما كانت تطالع وجه "كريم" دون أن يلحظ ذلك، فربما أمكنها رؤية ما يخفي من مشاعر كانت تعلم كم يتقن إخفاءها دائمًا.

قال "كريم" زوجتي الحبيبة لقد أجلتُ كل أعمالي لأكون إلى جوارك وفي صحبة صديقي العزيز "آدم" فأنا أفتقده كثيرًا.

ثم توجه فجأة نحو صديقه مداعبًا .. أحقًّا ما سمعت يا عزيزي يقولون إنكَ تنوي الاشتراك في مسابقة الدراجات صباح الجمعة القادمة؟ قال "آدم":

- لديك قدرة هائلة على السخرية لكنكَ تضحكني مع ذلك، انظر- قالها الصديق القديم - بينما بدأ في استعراض عضلاته بعد أن خلع سترته، أترى؟ أنا في كامل لياقتي.

- يبدو أن الدعوات المجانية قد أتت ثمارها يا صديقي.

تعالت ضحكاتهما أما "جميلة" فلم تخرج قط عن وقارها، وما إن هدأ حتى قال "آدم" موزعًا نظراته على مرافقيه، أظنه من اللائق أن ندعوها الآن أليس كذلك؟ أعني "غادة".

أومأت "جميلة" بالموافقة، وتابع "آدم".. قد جئنا من أجل أن نستعيد روابطنا من جديد، أليس كذلك؟ اكتفت "جميلة" بإيماءة قبول وموافقة جديدتين.

نهض "آدم" متوجهًا إلى "غادة" لدعوتها إلى أن تكون في صحبتهما بينما كانت هي تنتظر تلك اللحظة وإن حاولت أن تبدو منشغلة بأحاديثٍ جانبية مع صديقتها التي وقفت إلى جوارها، بادلت "آدم" التحية وبعضًا من الكلمات غير المسموعة، لكنها لم تخلُ من ود ظاهر فقد كان ما يجمعهما دائمًا أكثر كثيرًا مما يدفعهما للافتراق كصديقين.

سارا إلى جوار بعضهما البعض قادمين نحو الزوجين، اللذين هَمَّا بمصافحتها والترحيب بحضورها، جلست إلى جوار الزوجة، أما "كريم" فقد ازداد ارتباكه لسببٍ غير مفهوم، ربما تسبب حضورها في استحضار مشاعره الجارفة نحوها من جديد وهو ما حاول إخفاءه فبدا مرتبكًا مضطربًا.

بينما حاولت "غادة" أن تهدِّئ من روعه دون أن توجه له حديثًا مباشرًا.

قالت:

من الرائع أن نلتقي جميعًا من جديد، كانت أيامٌ قاسية، دفعنا دفعًا للافتراق وأكرهنا على الابتعاد، قطعت روابطنا رغمًا عنّا ولكن ذلك ما اقتضته الضرورة.

حمدًا لله أن تجاوزنا ذلك الآن، ولعلنا أدركنا جميعًا كيف يكمل بعضنا الآخر وكيف هي سعادتنا في تواجدنا معًا.

صدقتي يا عزيزتي – قالت "جميلة"– الابتسامات التي أراها الآن تبدو كزائر طال غيابه، ولكني أرجو أن تستمر زيارته تلك إلى ما لا نهاية.

فليقيم هنا دائمًا أن أراد، أما أنا فبإمكاني التكفل بتكاليف إقامته الدائمة وانتقالاته القريبة أيضًا – وهنا تعالت الضحكات بعد أن أطلق "آدم" عرضه بتحمل تكاليف إقامة الزائر العائد، فقد بدا الأمر كتضحية مالية عظيمة ما دفع كريم إلى أن يقدم عرضًا لاقتسام تكاليف ذلك الزائر صانع البهجة.

فقد رأى أنه لمن الظلم أن يتكفل صديقه بمفردهِ بتلكَ التكاليف وإن كانت أجواء البهجة تستحق ما هو أكثر، وأنتما ما نصيبكما في تكلفة البهجة؟ سأل "كريم" المرأتين اللتين لم تستطعا منع ضحكاتهما فأطلقتا لها العنان، أجابت "جميلة" أنا أقدر لك دائمًا ما تبذله من أجلي ومن أجل ابنتنا - تلك التي ما إن تظهر حتى تختفي - كي تصنع لنا حياة أكثر رغدًا، فهل هذا نصيب مناسب في تكلفة السعادة؟

أما "غادة" فقد صمتت لبعضِ الوقت ثم قالت: "أنا امرأة وحيدة لا عمل لي أنفقُ الأموال فلا تعود ثانية - تضحك - ولكني أظن أن ما أمتلك من أموال يكفي نفقاتي للخمسين عامًا القادمة، زمن طويل أليس كذلك؟"

يبدو كذلك - قالتها "جميلة" - بينما تنبهت لذلك المعنى - ثم بدا عليها الانزعاج وراحت تمعن النظر فيمن حولها علها تجد بينهم ابنتها، قبل أن تستأذنهم في البحث عنها، بينما نهض "كريم" مطمئناً الزوجة باصطحابها، حاولت "غادة" تهدئتهما قائلة أنا قد رأيتها منذ دقائق قليلة، كانت تحادث صديقة لها، ليس ثمة ما يبعث على القلق، اطمئنا.

أما الصديق القديم فقد بدا منزعجًا قليلًا عندما تذكر أن الفتاة دائمًا ما كانت تبدو شاردة في المرتين اللتين رآهما فيها منذ قدومه، وها هو يقر بأن ذلك الشرود كان يلازمه هو أيضًا عندما كان مراهقًا ..

لكنه يعود فيدعوهما للاطمئنان.

بعد أن انصرفا الزوجان للبحث عن ابنتهما، يدعو "آدم" غادة" للرقص بعد أن دارت الموسيقى وامتلأت الحلبة بثنائيات راقصة.

في طريقهما يلفت "كريم" نظر "جميلة" إلى تمتمات ابنته غير المسموعة في كثير من الأحيان ويسألها إن كانت قد لاحظت ذلك قبل أن يعود ليؤكد لها على حبه لها وكيف أن عليهما التقرب إليها ومساندتها.

أما الزوجة فقد راحت تردد صلوات شكر؛ لأن زوجها قد أدرك ما تعانيه ابنته أخيرًا، وهى وإن كانت تعلم كم يحبها حبًا جمًا فقد رأت دائمًا أن ذلك الحب يبقى بلا معنى إذا ما جانبه القرب والمساندة لمن نحب، ففي غياب ذلك القرب تبقى الكلمات تتردد مخنوقة غير مفهومة محملة بالكثير مما يدور في رأس الفتاة الشابة دون أن تفصح عن شيء.

-أنتَ لم تهاجمها قط ¯ أعلمُ ذلك - وأعلم أيضًا أنكَ لم تبدِ استياء قط تجاه أيٍّ من آرائها الحادة أحيانًا بل كنت دائمًا مرحِّبًا بما تقوله رغم قسوته واندفاعه، لكن ذلك لم يكن كافيًا، فهي دائمًا ما تتطلع لفهم كل شيء، ترفض كل الحقائق إلا قناعاتها، وتظن دائمًا أن الجميع متصنعون يخفون أمرًا.

- لا أظنك تعنيني بذلك، هل تظنيني أخفي شيئًا؟ لا أظنك تخفي شيئًا أنتِ أيضًا.

وأما "آدم" فقد رآها فتاةٌ ذكية ومميزة يدور عقلها حول معانٍ تتجاوز قدرات عقول الفتيات في مثل سنها، وكان يوقن بأنها ذات قدرة على اختراق ما يجول بخاطره ورؤية ما يخفيه بوضوح.

وهو ما كان يخيف "غادة" التي دائمًا ما كانت تشعر بذنبٍ عظيم إذا ما رمقتها الفتاة بنظرة من نظراتها القاسية، ولذلك فهي لم تفلح أبدًا في كسب ود تلك الفتاة رغم محاولاتها المضنية وسعيها لذلك فلقد كانت تخيفها كثيرًا بل وتقتلها بنظراتها الحادة، ذكرت "غادة" لـ"آدم" بينما كانا يتراقصان بأنه

ليس بريئًا تمامًا، وبأن عليه ألا يركن للطمأنينة في وجود تلك الفتاة، أما ادعاؤه بأنه ليس لديه ما يخفيه فهو لا يعدو إلا أن يكون هراءً ـ ثم أردفت:

- الناس لا يقولون الكثير مما يعلمون، فكلهم مولعون بإخفاء الأشياء، لابد وأنكَ تجدُ متعة في ذلك أنتَ أيضًا، تظن الأمر ليس بهذا السوء، وترى في اهتمامها بمعرفة كل شيء والشك في أن الجميع يخفون أشياءً مريعة أمرًا عاديًا .

أعلم أنكَ لا تضع أسرار أعمالكَ على قارعة الطريق، وأنكَ لاتخاطر بأموالك وأسرار شركتك وهي أمور أرادت الفتاة أن تدس فيها أنفها قبل أن تقف أنتَ في طريقها لذلك.

- إنها مولعة بمعرفة كل شيءٍ، كاد ذلك أن يحدث صدامًا بيننا، أخشى أن تلك الرغبة قد تدمرها يومًا ما، ومع هذا فأنا أحبها رغم تلميحاتها بأنني أخفي شيئًا.

- أظن أن هناك ما تخفيه ويغضبها؟ أعني أنها لابد أن تشعر بالغيرة لقربكَ من أمها حتى وإن كان ليس ثمة ما يشين في علاقتكما، ليس بإمكانكَ أن تنكر مشاعركَ القديمة تجاه أمها، أنتَ لم تنسَ أبدًا ذلك الحب حتى بعد مرور كل تلك السنوات، تداوم على الذهاب إلى ناديها، أنا أعلم مبلغ السعادة في القرب من الحبيب، كثيرًا ما تفشل محاولات الانشغال بالأعمال في تهدئة لهيب تلك المشاعر.

توقف الصديق القديم أمام تلك الكلمات عاجزًا عن التغلب على الأحاسيس المختلطة التي انتابتهُ ثم راحَ يؤكد لها

على أنه ما يزال قادرًا على التغلب على آلامهِ، وبأنه ليس بحاجةٍ إلى مساعدتها من أجل ذلك، فهي ليست في موقف أفضل.

قال: تفخرين بحبه لكِ ولكن لا تنسي أنه يحبها أيضًا، ثقتك بأن حبها سيخفت يومًا في قلبه تبدو كرهان خاسر، ثم ماذا عن الفتاة المخيفة؟ ألم تعد تخيفك بعد؟

اختار أن يلقي بتلك الردود القاسية عله يوقفها عند حدود ما قالت من عبارات جارحة وهي وإن كانت لا تقصد تجريحًا، فإنها قد أعطت لنفسها حقوقًا لم يمنحها إياها قط، ثم إنه لو كان قدترك نفسه فريسة للغضبِ مما قالت، إذًا لأطلق العنان للعديد من العبارات القاسية التي راودته وجال في خاطرهِ إطلاقها وقت غضبهِ.

ولكنه اكتفى بالتأكيد على أن علاقته بـ"جميلة" ليس بها ما يشين.

- و هل أنتَ سعيد بهذا؟

شرد بذهنه لكن شروده لم يدم للحظة، فقد استفاق من شروده على اقتراب "كريم" وزوجته بينما يعلو وجهيهما حزنًا لم يفلحا في إخفائه، كان اقترابهما للاستئذان في الانصراف، فالابنة قد غادرت المكان إلى المنزل، هذا ما أخبرتهم به صديقة لها.

وهما لم يكونا يعرفان إذا ما كانت قد أصيبت بوعكة دفعتها للانصراف أما أن ثمة سببٍ آخر، ولهذا لم يكن أحدٌ منهم باستطاعته أن يعلم إذا ما كانت بخير أم لا، كان الأمر

مقلقًا حقًّا وهو ما دفع "آدم" إلى التأكيد على حضوره للاطمئنان على "ندى" في وقت لاحق، الشيء نفسه أكدتهُ "غادة" لحظة توديعها للزوجين، لكن "آدم" قد أدرك بحدسهِ أن ثمة خطبًا جللًا قد أصاب الفتاة الجميلة، كان يتوقع حدوث ذلك يومًا ما، لكنهُ لم يكن يتوقع أن يحدث ذلك بتلك السرعة.

لم يعد له رغبة في البقاء فقد اختفت البهجة، أما "غادة" فقد أشارت إلى رغبتها في الانصراف، أخبرها بأن عليهما أن يكونا إلى جوار الفتاة والوالدين، أومأت بالموافقة لكنها أعادت إلى مسامعه تلك المخاوف الدائمة التي تصيبها عندما تنظر إليها تلك الفتاة، لكنه نبهها إلى أنها مريضة الآن وهو ما قد يجعلها غير قادرة على إرسال أيٍّ من النظرات المخيفة.

وهنا دارات الموسيقى وهمَّ الجميع إلى حلبة الرقص، وفي تلك اللحظة غادر "آدم" و"غادة" المكان.

***

(4)

منزل "كريم"

كانت الابنة "ندى" قد عادت إلى المنزل قبل لحظات منهكة تمامًا، تبدو وكأنها تعاني أعراض الحمى وقد ألقت بجسدها على سريرها بعد معاناة للوصول إلى غرفتها، كانت قد أعتادت أن توصد نافذة الغرفة الضيقة إلا قليلًا فقد أحبت دائمًا أن تتسلل عبر الممر المفتوح من النافذة رائحة شجرة الياسمين تلك التي تفوح في حديقة المنزل ويزداد فحيحها أسفل نافذتها.

إنها الشجرة التي طالما راعتها حتى تمددت فروعها يومًا بعد يوم فصارت يانعة مزهرة يكسوها اللون الأبيض حاملاً إلى نفسها الهدوء والسكينة.

وإن توقفت أخيرًا عن أن يستهويها شيء، فقد صارت أكثر انشغالا بتلك الأفكار الدائرة في رأسها بلا توقف، والتي جعلتها تبدو كحطام، مهزومة صريعة، بل وملقاة كركام في مخدعها عاجزة تمامًا وكأن شيطانًا قد سكن روحها وجسدها.

هرعت الأم إلى غرفة الابنة بينما تبعها الأب في صحبة الطبيب ذلك الذي أحضره للتو، كانت الابنة قد راحت في

سبات عميق بينماكان الطبيب يقترب منها متحسسًا جبهتها وعينيها ونبضاتها، وقد بدا متأثرًا وإن أخفى ذلك التأثر سريعًا حتى لا يلحظه الوالدان، فاستدعى ابتسامة خفيفة ليبعث لكليهما رسالة اطمئنان، ثم راح يوصيهما بضرورة أن يتابع حالة الفتاة طبيب نفسي، عند ذلك اصطحبه الأب إلى الخارج مغادرين الغرفة.

اقتربت الأم من الابنة متحسسة شعرها برفق، تُقبلها بحنان بالغ، تغلبها الأحزان قبل أن تتراجع قليلًا لتلتقي بجسدها فوق أحد المقعدين القريبين من سرير الابنة وهى في حالة من الإرهاق الشديد، ثم راحت تغفو شيئًا فشيئًا بعد أن أجبرها النوم على الاستسلام حتى ذهبت في سباتٍ عميق.

وفي أعقاب ذلك نهضت "ندى" من سريرها في كامل صحتها وأناقتها ثم أخذت تتمايل في حركات راقصة مما جعل الأم تستفيق على وقع حركاتها، رسمت ابتسامة على وجهها قبل أن تحاول جاهدة النهوض من مقعدها محاولة الاقتراب من الابنة، لكن الفتاة كانت قد قررت أن تمنعها من النهوض بإشارة آمرة بكلتا يديها وكأنها ساحرة مسيطرة فأبقتها في مقعدها قبل أن تغفو من جديد.

قالت الفتاة:

أعلمُ كم تعانين، ترسمين الابتسامات لتخفي خلفها بقايا قلبك المحطم لست أدري ما كل تلك القوة والصلابة .. لم تخلق تلك القوة لامرأة واحدة .. وفي حضور غريمتها؟! سنواتٍ طويلة وأنتِ تخفين الأمر .. أعلم أنكِ تدركين تمامًا ما يدور من

حولك .. أشعر بالرعب من قدوم تلك اللحظة التي ستخفقين فيها في تحمل المزيد من الآلام.

هل هذه حياة؟

لماذا تتمسكون بهذا القدر البالغ من الخداع والأكاذيب؟

انتبهي جيدًا يا أمي .. فأنا لم أعد تلك الفتاة الصغيرة التي تجيبون أسئلتها بكثير من الغموض والابتذال .. فأنا أراكم بوضوح .. بل حتى أوضح مما ترون أنفسكم (تقترب من الأم وتحنو عليها)

مسكينة أنتِ يا أمي الجميلة قضيتِ سنواتٍ طويلة ملؤها/ ملأتها التضحية من أجلي .. من أجل أن أعيش بينكما .. من أجل أن يرضي مجتمعكم البغيض .. لماذا تشترون رضا المنتقدين بهذا الثمن الباهظ؟

ها أنتِ قد استبدلتِ المظاهر الزائفة بسنواتٍ من السعادة المفقودة .. فماذا يساوي رضا الناس مقارنة بذلك؟ هل أنتِ سعيدة الآن يا أمي؟

أتدرين؟ أنتِ لم تجلبي لِيِّ السعادة بتنازلاتك أيضًا .. قبل سنوات كنت أفهمُ ما يدور .. كنتُ أعلم أنكِ تعلمين .. أشفقتُ عليكِ ثم امتلأت بالشفقة حتى صرت محطمة تمامًا.

أتدرين؟ لم يحمني ذلك الارتباط المصطنع وتلك المظاهر الخادعة ..

لم تحمني ابتسامتكم الزائفة من الانهيار .. ولم تجلب ليّ الراحة أيضًا. غارقون أنتم في الزيف .. متى تفيقون؟ متى تفيقون؟ .. تستيقظ الأم فزعة مضطربة، تهرع إلى مفتاح إضاءة الغرفة فتضيئها، فتجد الابنة نائمة في سريرها ما زالت تعتريها مظاهر الإعياء والمرض.

وفي تلك اللحظة يدخل الأب إلى الغرفة فيلحظ على الفور علامات الفزع على وجه الأم فيقترب منها ويحنو عليها مطمئنًا إياها ثم يسألها ¯ هل كنتِ تحلمين؟

لكنها بدت وكأنها غير قادرة على الفصل بين الحلم والواقع، غير مدركة إن كان ما رأته حلمًا أم حقيقة؟!، ينهضها ثم يطلب إليها أن تذهب إلى غرفتها للراحة لبعض الوقت، تخرج، ثم يقترب من الابنة، يقبلها ثم يجلس إلى الكرسي المجاور لسريرها قبل أن يعود بظهره إلى الخلف مستسلمًا للنوم حتى يغفو تمامًا بعد أن غلبه النعاس ..

تدخل "هى" إلى الغرفة بينما تسير على أطراف أصابعها وكأنها لا تريد إيقاظ الفتاة، لكن الفتاة تنهض فجأة وقد راحت ترسل النظرات المخيفة التي طالما ارعبت تلك المرأة الجميلة.

تقول في صوتٍ مخيف:

- ها أنتِ قد جئتي يا عزيزتي .. تمامًا مثلما يحوم القاتل حول جثة ضحيته، لماذا كل هذا الارتباك؟ هل جئتِ للاطمئنان أم تراكِ لم تستطيعي النوم؟

أنا أفهم ذلك، ولكن لماذا لم تستطيعي النوم؟

لابد وأن هيماكِ عشقًا بهذا الرجل النائم هناك قد حملكِي إلى هنا بداعي الاطمئنان على حالتي، تبدين وكأنك قد خشيتي أن يبقيه مرضي بعيدًا عنكِ لفترة طويلة، لا تستغربي فأنا أعلم إنكِ لا تطيقين ابتعاده.

و لكن لماذا تبدين خائفة فزعة؟ هل تخاف امرأة "جميلة" قوية من فتاة مثلي يقهرها المرض؟

كفي عن الخداع يا عزيزتي، فأنتِ لم تفلحي في خداع أحد في هذا المنزل إلا هذا الرجل .. قبلت أمي واصطنعت البلاهة لمرض شائع يسكن أجساد المصابين بالفصام في مدينتنا، أما أنا فقد كنت أتحين لحظة الحساب وها أنتِ قد قادتك قدماكِ إلى تلك اللحظة.

ربما تمنيتِ أن ينتهي مرضي بالحمى إلى رحيلي عن عالمكم البغيض، ولكن لم يكن ذلك عادلاً ابدًا.

حاولت "هى" أن تتماسك، صرخت في الفتاة متساءلة لماذا تحملينني كل الذنوب؟ إننا متحابان، لم يكن لنا إرادة في ذلك عندما تقابلنا لأول مرة وجد كلانا ضالته في الآخر، لقد حافظ أبوكِ دائمًا على أسرته .. كثيرًا ما أفصح ليّ عن حبه لأمك، كثيرًا ما تركني أحترق عائدًا إليها، لكنه وجد عندي ما لم يجده عندها ووجدتُ فيه ما لم أجده في رجل آخر.

غلبنا العشق وأغرقنا في نهر جارف من الحب دون إرادة منا أو اختيار.

فهل يجنبني ذلك عقابك؟

لكن الفتاة تقترب منها وتواصل إرسال تلك النظرات المخيفةإليها، حتى جعلتها تخفق في إخفاء مشاعر الخوف التي غلبتها فأخذت تتراجع أمامها شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى باب الغرفة ثم هرعت منصرفة إلى الخارج.

بعد لحظات دخل "آدم" بينما كان الأب لا يزال نائمًا، أما الفتاة فقد كانت دائمًا ملقاة في سريرها يغلبها المرض.

لاحظ "آدم" أن صديقه الأب نائمًا اقترب من الفتاة قليلًا وقد بدا حزينًا لحالتها ثم قال في نفسه، ها أنتِ يا حبيبتي قد أعياكِ التفكير حتى خارت قواكِ .. كم كنت أخشى مرورك بتلك اللحظات القاسية .. أشفقتُ عليكِ من أحزانك .. أعلم إنكِ تدركين تمامًا كل ما يدور من حولك.

لكن الفتاة تنقض فجأة وتباغته بالهجوم قائلة:

جئت تتطهر من ذنوبك أنتَ أيضًا .. أليس كذلك؟ لا تتظاهر بالبراءة أيّها الصديق الطيب فإنك لا تخلو من الذنوب.

ربما ليس بوسعي توجيه اللوم لك فيما يخص سرية أعمالك خاصة وأنا أعلم تمامًا أنكَ ترفع شعار "القلوب الحالمة لا تصنع النجاح".

ولكني ألومك على الإفراط في هذا الحرص بينما تستخف بوجود أبي ذلك النائم هناك منذ زمن، أنت نسيت ذلك تمامًا بل إنكَ نسيت أن المرأة المسكينة التي تجلس بالخارج هي زوجته.

لماذا تبدو مرتبكًا في مواجهة فتاة شابة مثلي؟ أإلى هذا الحد باغتتك المفاجأة؟ أم لأنك قد أيقنت الآن أي ذنبٍ اقترفت؟ ويا له من ذنب عظيم!

أنا على يقين الآن أنك أدركت لتوكَ أن مساندتك لوالدي في الأوقات الصعبة، ووقت أن كادا يفترقان لا تبرران لك ذلك الحب، أنت أعطيت لنفسك حقًّا ليس لك .. يجدر بك ألا تراوغ أيّها الصديق القديم .. فتلك ليست صفقة.

أعلم أنه عندما يحب أحد القاطنين في تلك المدينة امرأة صديقه فإنه لا يعد مثاليًا بعد ذلك .. وأنت قد فعلت وإذن صرت واحدًا من المذنبين.

كثيرًا ما لمحت شوقك إليها في عينيك بينما تجاهد لإخفائه، لكنك لم تكن لتفلح بينما أنا هناك، في كل الأماكن التي تلتقي فيها عيناكما، لا أحد يفلح في إخفاء مشاعر الحب في حضرة الحبيب، الجميع يستميتون لكن ذلك ما كان لينجح قط.

والآن دعني أخبرك أمرًا مهمًا، بل دعني أواجهك بالحقيقة العارية، أنتم جميعكم قتلة .. لا تقيمون وزنًا كبيرًا لمثلكم وشعاراتكم التي تدعون، بل إنكم متصنعون كاذبون.

قال وقد غلب عليه الارتباك والتردد ..

أنتِ لا تفهمين يا عزيزتي .. دعيني أخبرك شيئًا .. أنتِ تظنين إذًا أننا نختار من نحب؟ هذا الظن خاطئ بلا شك .. يومًا ما سوف تدركين أن أحدًا لا يملك هذا الاختيار، نحن نختار زوجاتنا وهن يخترن أزواجهن .. لكننا نحب أخريات ويحببن

آخرين .. تغمرنا المشاعر غمرًا فلا نعدنرى ما فوق رؤوسنا .. نغرق في العشق فلا ندري في الحب عارًا، أما أهل المدينة الذين أغواهم ادعاء الفضيلة فإنهم أول من يتسللون إلى منازل عشيقاتهم في الظلام وتحت ضوء القمر الخافت .. أكثرهم يختلسون القبلات في الطرقات المظلمة .. فإذا ما أشرقت الشمس ذهبوا مسرعين لأداء الصلاة يتصارعون من أجل موطأ قدم في الصفوف الأولى، تلك هي فضائلهم التي يدعون .. أما أنا فلست أرى في الحب عارًا .. الحب فضيلة .. الحب صلاة.

بإمكاني الاختفاء من حياتكم جميعًا إن كان في ذلك شفاؤك ولكن أرجو أن تعلمي جيدًا أننا جميعًا كحبات العقد إذا أردتِ أن تنتزعي إحداها فستنفرط جميعها .. فكري في ذلك مليًا يا فتاتي الجميلة.

تلك الجملة التي بقيت تتردد على اسماع الفتاة.

وتساءلت بينما يغلبها اليأس حتى عادت سيرتها الأولى ملقاة خائرة على سريرها، هل يشفى أبي أو السيدة الجميلة وهل تشفي أنتَ أيضًا؟

أنا غير مسامحتك أيّها الصديق الطيب، رحيلك أو اختفاؤك لم يعدا كافيين، أنتم جميعًا قد قتلتم تسامحي إلى الأبد ¯ رددتها حتى غابت عن الوعي.

بقي الصديق القديم "آدم" سائرًا جيئًا وذهابًا في حالة من الترقب، استيقظ الأب بينما كانت الفتاة المريضة ما تزال نائمة في سريرها.

نهض الأب مُرحبًا بالصديق القديم معتذرًا عن إغفائه للحظات، كانت "ندى" ما تزال مستلقية على سريرها فراحا ينظران إليها في حزن ويقتربان منها بينما قال الأب إنها مريضة جدًا حذرني الطبيب من إثارة انفعالاتها وأوصاني بتوفير الراحة والهدوء لها كسبيلين لتعافيها، ليتها تستريح .. ليتها تنتزع يقينها لبعض الوقت، مسكينة أنتِ يا فتاتي الجميلة .. لست أدري ما الذي تحملينه في رأسك الصغير من الهواجس.

يطمئنه "آدم" ويستأذنه في الانصراف مذكرًا بأنه قد مكث بعض الوقت إلى جوارها عندما كان هو نائمًا.

يخرج "آدم" من الغرفة، وعند مروره بالبهو الرئيسي للمنزل يلتقي بـ"جميلة" بينما كانت هي جالسة هناك وكأنها كانت تنتظر خروجه، صافحته شاكرة حضوره واهِتمامه، كان تعبيرها عن الامتنان ممزوجًا برجاء ألا يرحل، كانت تستشعر أن الرحيل في هذه المرة ربما يكون رحيلاً بلا عودة، أكدت لها ملامح وجهه وحزنه العميق تلك الظنون التي راودتها، ولكنه كعادته لم يكن أبدًا ليلتقيها بوجهٍ عابثٍ مهما كان متألمًا مكسورًا، فهى المرأة التي أحبها وسيبقى كذلك على الدوام حتى وإن اضطر إلى الابتعاد.

ابِتلع آلامهِ وغَلبتهُ مشاعرهُ فطمئنها إلى أن الابنة ستكون بخير، وأنه سيفعل كل شيء من أجل سعادتها، وبنبرة حزينة راح يخبرها بأن الوقت قد حان لكي يتخذ قرارًا صعبًا ومؤلمًا، فالقاعدة تقول إن الكبار أكثر قدرة وتحملاً، وإن كانوا يتصنعون ما يبدون من شجاعة تستند في الواقع إلى أعمدة

الضعف، فقلوبهم العاشقة لا تقوى دائمًاعلى احتمال صدمة الافتراق.

لا عليكِ يا سيدتي هذا بعض من هذيان الحزن فأنا أتألم كثيرًا لمرضها، ولكن اطمئني سوف تكون بخير عندما يزول كل ما يؤلمها.

والآن يجب أن أذهبُ بعيدًا، فالابتعاد يحتاج إلى قدر من المثابرة والشجاعة، وأنا بحاجةٍ إلى اعتياد الغياب.

أما "جميلة" فقد أزعجتها نغمة الابتعاد تلك وكأن مخاوف الفراق التي طالما طاردتها قد أوشكت أن تصير حقيقة، راحت تسألهُ إن كان عازمًا على الرحيل بينما هم في أشد الحاجة إلى مساندته.

ذكرته بأن الفتاة ما زالت صغيرة لم تعلم الكثير بعد عن قسوة الحياة وجورها، وبأنهم كانوا جميعًا متسامحين، بحيث لم يتوقف أحدهم كثيرًا أمام ما يبدو أنه خطايا الآخرين، الخطايا قد تذهبها الآلام، أما الذنوب فلن يمحوها الرحيل.

إنها ابنتي وأنا أحبها حبًا لايبقى مرارة تجريحها في قلبي سوى لحظات، أرجو أن تغفر لها جنوحها وتجرؤها، أعلم أنه قد أصابك منه ما أصابك لكن ذلك لا يعادله الفراق.

بدا متأثرًا غير قادر على مواجهة أحزانهِ، بعد ما رأى عينيها الجميلتين وقد لمعتا بدموع لم تقوَ على منعها من التساقط.

لكن الرحيل فقط يعيد الابنة إلى الحياة، ولذلك فقد آن أوان الرحيل.

- و لكن ألن تعود؟ هل نفترق جميعًا؟ نظر إليها في صمت قبل أن يقاوم بقاءه.

- لم يعد هناك سبيل للبقاء، قالها ثم ألقى وداعًا مفاجئًا أتبعه بالخروج سريعًا قبل أن تستمر نوبة من التردد التي انتابته.

- إذًا فبوادر الانهيار قد لاحت في نهاية تلك الليلة الطويلة ،آثرت الصمت بينما أنا محطمة، كنت أعلم دائمًا أن إطلاق العنان لغضبي سوف يفقدني الجميع، ولهذا تماسكت طويلاً وواريت الأحزان، لكن ذلك أيضًا لم يكن كافيًا، أتلك هي النهاية؟ أم أنها بداية الانهيار؟ وإذًا سابقى وحيدة مهملة ملقاة في أحد الأركان لأمدٍ غير معلوم.

- ياله من ثمنٍ باهظ لشفائك يا حبيبتي، ولكن أتراهِ كافيًا كي تشفي؟

أعلم أنكِ قد سمعتِ مناجاتي الطويلة مرارًا في ليالي الشتاء الباردة .. بينما أرقدُ في فراشي وحيدة ..

أآلمكِ ذلك؟

لكن تلك الآلام ما كانت لتقارن بما أشعره الآن، لن يعيد الافتراقُ أباكِ إلى مخدعي، قد يبقى طويلاً في المنزل، بل قد يبقى دائمًا حتى في ساعات الليل الطويلة، تلك الساعات التي اعتاد أن يقضيها هناك، في منزلها ..

لكن ذلك لن يضمن لي بقاء دفء أنفاسه في فراشي لأيام متتالية فأنتِ لا تدركين شيئًا مهمًا. الحب لا يضمنه القرب ولا يقويه التنازل ولا يناله الطيبون، بل إن تلك الأشياء قد تسرب الملل إلى نفوس المحبين، فيتحول ذلك الحب العميق إلى لا شيء، وربما تفر المرأة التي كانت تهوى التمسح في أقدام رجلها كقطة وجه القمر، وهى التي كثيرًا ما كانت تفاخر بتمسحها عند قدميه لتوقظه في الصباح دون تردد أو كبرياء.

وفي المساء قد تتحول تلك القطة إلى وحشٍ قاسٍ تنتفخ أوداجه رغم ضآلته، فتنسى أن الوحوش لا تموء، بل أنها تتجاهل ذلك الإناء الصغير الذي لم تكد تجف فيه قطرات اللبن، تلك التي سكبها لها صاحبها لإطعامها في الصباح .. هناك بجوار باب الشرفة الصغيرة.

وهكذا فإن الألم يُبقي الحب، لكن الراحة والسكينة تفقده لهيبه حتى ينطفأ تمامًا، هل سمعتني يا حبيبتي؟

***

(5)

في غرفة الابنة – آخر دقائق تلك الليلة

لا يزال الأب نائمًا في مقعده المجاور لسرير الابنة، تدخل الأم وتضيء الغرفة فيستيقظ الأب فزعًا، ثم يهدأ قليلًا بعد أن تقترب منه زوجته، يلتفت إلى الابنة ليطمئن على حالتها، يقترب منها ويقبل جبهتها، ولكنها لا ما زالت غارقة في سباتها العميق، يسألها وكأنها سوف تجيبه.

- هل أنتِ بخير يا حبيبتي؟ ثم يتحول ليسأل الأم:

- هل أفاقت لبعض الوقت؟ هل نمتُ وقتًا طويلاً، لست أدري في أي ساعة من الليل نحن؟

- تبدو كأنك لم تستيقظ بعد، بل إنك ما إن تصحو حتى تنام.

- أتسخرين مني يا عزيزتي؟

- لم أقصد سخرية بالطبع، ولكنكَ تبدو دائمًا مرهقًا تعبًا، ربما تسنح لك الفرصة كي تستريح قليلًا في الأيام القادمة.

- أتمنى أن تشفى سريعًا، فالحياة توقفت اليوم وربما تتوقف تمامًا إذا ما بقيت ابنتنا كذلك، لكني لا أفهم لماذا صارت تتملكها تلك العصبية والتوتر طوال الوقت، بل إنها كانت تردد في انفعال أيضًا كثيرًا من الكلمات غير المفهومة في الأيام الأخيرة، فما الذي أغضبها إلى تلك الدرجة، ما الذي جعلها تنهار تمامًا هكذا؟

- كنت أظنها غاضبة لأني أقضي بعض ساعات الليل في إنجاز أعمالي، ظننتها تتفهم ذلك، فهي لم تظهر امتعاضًا لهذا الأمر، كانت تبدو مقدرة لذلك، أو ربما هذا ما فهمت؟ الأمر المؤكد بالنسبة لِيّ أنها كانت قانعة بأن من يملك مالاً وفيرًا ينبغي عليه ألا يعمل!

ولكن أتظني أن أحداهن قد كسر قلبها؟ أعني أن الفتيات في ذلك السن دائمًا ما تقودهن مشاعرهن وخيالهن المفرط إلى التعلق بفتيان غير ناضجين، أتظني أن إحداهن قد خان حبها، أو أنه قد تركها راحلاً إلى حبيبة أخرى؟ أو لعلها رحلت تحت تأثير ضغوط لم تكن لتحتملها، فهى تصاب فورًا بالارتباك عندما تواجه مواقف صعبة، حتى إنها قد تدفع بعيدًا من يربكها وأن أراد مخلصًا مساندتها!

قالت وقد تملكها الانفعال فخرجت عن هدوئها لأول مرة منذ سنوات.

- كنت أفترض دائمًا أن تجيبني أنتَ عن كل تلك الأسئلة، أظنك تعلم أن الفتيات في تلك المرحلة من عمرهن يكُنّ أكثر ارتِباطًا بآبائهن.

لستُ أعفيكَ من مسؤولية ما حدث لابنتنا، فأنتَ لا تهتم بها مثلما يجب أن يكون الاهتمام، لا تسألها عن شيء ولا تحادثها طويلاً في أشياء تثير اهتمامها، بل إنكَ قد اختصرت دورك عند جلب الأموال ومنحها ما تحتاج لشراء الملابس وقد تلقاها لدقائق أحيانًا بينما تقلب في محفظة أوراقك ...

كان لكلمات الزوجة وقعًا مؤلمًا على مسامع زوجها، الذي فشل تمامًا في إخفاء ملامح الدهشة والمفاجأة التي أصابته، فهو لم يعتد أن تحادثه زوجته بتلك اللهجة أو بتلك النبرة العالية وذلك الانفعال الظاهر، مثلما لم يعتد أن توجه إليه تلك اللائحة العريضة من الاتهامات دفعة واحدة.

فقد عهدها رقيقة وديعة حتى في أقسى لحظات غضبها، كان بإمكانه أن يدرك دائمًا أن ثمة ما يثير انفعالها دون أن تظهر هي له ذلك.

فصمت لبعض الوقت ثم راح يدور في الغرفة حتى يمرر اللحظات، فربما سمح مرورها في إعادة السكينة والهدوء إليها من جديد، عاد واقترب منها وقد أعاد الوداعة إلى ملامحه ثم قال لها في صوت خفيض:

-أنتِ محقة يا عزيزتي، كان عليّ أن أفهم ذلك كله دون أن تقوليه، ولكن لعلكِ تلتمسين ليّ الأعذار، فأنتِ تعلمين ما يشغلني .. وهنا بادرته مقاطعة:

- أرجو ألا تمضي فيما أنتَ ماضٍ لقولهِ، وبينما حاولت أن تظهر قدرًا كبيرًا من التماسك، أخبرته بأن يفعل ما يظنانه ضروريًا الآن من أجل شفاء ابنتهما.

- أرجو أن تهتم بإحضار الطبيب النفسي في الصباح، كما أوصي طبيبنا الخاص، لا بد وأنكَ تذكر ذلك!

- أجل اطمئني لست أنسى ما أوصانا به.

- آملاً أن ينتهي كابوس مرضها الذي أصابنا جميعًا عما قريب.

فيقترب منها ثم يربت على كتفيها قائلاً:

- اطمئني سوف تكون بخير، أظنني سوف أؤجل كل أعمالي حتى تمام شفائها، سوف أفعل ذلك حتمًا، إني حزين لأجلها كل الحزن، لا يمكنني تحمل ادعاء أني كنت سبب ما آل إليه حالها، لكنني سأفعل كل شيء من أجلها.

***

(6)

صباح اليوم التالي

كان الوقت لا يزال مبكرًا عندما قررت أن أقضي ساعة مبكرة من نهار هذا الصباح خارج المنزل، وذلك قبل أن يحين موعد حضور الطبيب إلى عيادته في الحادية عشرة صباحًا، حسب ما أكده موظف استقبال المكالمات هناك.

كان صديقًا ليِّ قد أخبرني عندما كنا عائدين ذات يومٍ من صالة المزادات القريبة من كاتدرائية كل القديسين، تلك التي يقطن الطبيب الشهير على بعد خطوات منها.

بأن هذا الأخير لا يدع مجالاً للمصادفة في تنظيم كل ما يرتبط بمرضاه وهو إن كان حريصًا على ألا يبدو طبيبًا نفسيًا نمطيًا يجسد صورة طالما علقت بأذهان الناس إلا أنه لم يستطع يومًا - رغم محاولاته المضنية - تغيير طريقة سيره غير المنتظمة أو زوغان عينيه عندما تسافر بعيدًا بين لحظةٍ وأخرى لأسباب غير مفهومة!

تذكرت على الفور كل ما أخبرني به صديقي عن ذلك الطبيب الذي عالج ابنته من مرض يتعلق بنوايا عدوانية مكبوتة تجاه الأشخاص والأشياء، بالطبع لم يفصح لي عن المزيد من الطبائع السيئة التي طالما سلكتها تجاه الجميع بطرق مقنعة ومستترة.

فهو لم يكن ليخوض كثيرًا في أعراض مرض نفسي قد أصاب ابنته، ذلك أن الناس يهربون من الحديث في تلك الأمور بل ويضطربون كثيرًا حيال التعامل مع من يصابون بأعراض كتلك.

ولذا فقد تحول حديث الرجل فورًا إلى الثناء على كفاءة الطبيب وقدرته الفائقة على اكتساب سمعة طيبة بين أقرانه، ثم راح يؤكد على أن ابنته قد شُفيت تمامًا وهي بخير حال الآن.

ابتسمت عندما أدركت أن قدماي قد قادتاني إلى الشارع الذي يقطن به الطبيب في تلك اللحظة، فقد حضرت سائرًا إلى هذا المكان دون قصد مني، شعرت بالارتياح وكأنني كنتُ بحاجة إلى أن تستعيد ذاكرتي ما قاله صديقي لأستشعر الاطمئنان على ابنتي.

وفي تلك اللحظات توارد إلى خاطري أن أذهب لأراها، كان الوقت ما يزال مبكرًا، وهي ربما أوشكت للتو أن تخلد للنوم، ثم إنني رحت أتساءل إن كان مناسبًا أن أذهب إليها بينما ترقد ابنتي مريضة في المنزل.

لكنني وبعد تردد ارتحت لفكرة أن ابنتي ستكون بخير، ثم إنني قد بررت لنفسي أني سأذهب لوقت قصير أعود بعده فورًا لاستقبال الطبيب في المنزل في الموعد المحدد.

يجدر بي أن أطمئن إذا ما كانت بخير، فأنا أشتاقُ إلى رؤيتها، لابد وأننا قد تسببنا في انزعاجها بانصرافنا المفاجئ، أظن أن زيارتي لها في هذا التوقيت لا تتعارض مع حبي لابنتي، لماذا يجب أن أحب أحدًا دون الآخر؟ ـ هكذا قلت في نفسي ـ وكأنه أبرر رغبتي الملحة في لقائها.

استرحت إلى ما أنتويت فعله ولكن كان عليّ أن أعود إلى منزلي من جديد لأستقل سيارتي ذاهبًا إلى منزلها وهو ما قررت القيام به بالفعل وفي ثوانٍ كنت في طريقي عائدًا إلى هناك.

***

(7)

منزل السيده "غادة "صباحًا"

قطعت الطريق إلى منزلها في دقائق قليلة، فالمنزل قريب من منزلي، كما أن الشوارع الضيقة في تلك الضاحية لم تكن قد ازدحمت بعد، فاليوم سبت لحسن الطالع - هكذا كنت ابتسم وحيدًا بينما أقود سيارتي ممتنًا ليوم السبت، إذ يقرر الجميع البقاء في منازلهم في هذا اليوم، وهو مايبدو واضحًا في خلو الشوارع من السيارات والمارة حتى الآن على الأقل.

أودعت سيارتي إلى جوار رصيف منزلها الفخم بين سيارتين كانتا هناك، فذاك يخفيها عن الأنظار مثلما ظننتُ دائمًا.

صعدت درجتيّ المدخل إلى حديقة المنزل سائرًا فوق الحد الفاصل بين جانبي الحديقة المليئة بالورود، المحاطة بأشجار الياسمين أمام أسوارها وكأنها تحاصره برائحتها وهو ما حملني دائمًا على تذكُّر كل التفاصيل بعد أن أغادر منزلها!

اقتربت من باب الدخول ثم ضغطت الجرس، بقيتُ منتظرًا لبعض الوقت قبل أن أسمع صوت خطوات غليظة تقترب من

الباب، كان الصوت المنطلق من حنجرة المرأة التي جاءت تستطلع من القادم جادًا متحفزًا سألت:

- مَن الطارق؟

- أنا! ..

فكرت لثوان ثم أدركت أنه ما كان يجب أن يكون ممتنًا ليوم السبت كل هذا الامتنان، فقد تذكرت على الفور أن ذلك اليوم هو اليوم الأسبوعي الذي تأتي فيه تلك المرأة الفظة الممتلئة لتنظيف المنزل، لم أكن قد رأيتها من قبل فأنا لم أعتّد القدوم إلى هنا في أوقات النهار، ولكن "غادة" كانت قد أخبرتني ذات مرة عن امرأة قصيرة ثمينة وخشنة تأتي إلى منزلها صباح سبت كل أسبوع من أجل هذا الغرض.

قلت:

- هلا أخبرتي سيدتك أنني ..

قاطعتني بحدة:

- السيدة قد خلدت للنوم قبل قليل وقد أخبرتني بأنها لن تكون راغبة في مقابلة أحد اليوم.

- ولكني .. أعني أنه .. أرجو أن تخبريها أن ..

- عذرًا يا سيدي فسيدتي لم تستثني أحدًا في ذلك، أعرف جيدًا من تكون، ولكنها قد أوصتني بأن أخبرك أنتَ أيضًا - إن تصادف وأتيت في هذا الموعد على غير العادة - عن رغبتها في أن

تبقى بعيدًا، فهي لا تريد الخوض فيما يرهقها، إنها متعبة وقد رأت ألا تستمر مجددًا في هذا الأمر.

- هل أمرتكِ بأن تخبريني بذلك أيضًا؟

- أجل يا سيدي، ولتغفر لي ذلك أيضًا، فقد أخبرتني أنها تريدك أن ترحل إن أتيتَ، وربما أمكنك العودة .. لاحقًا ..

هي لم تفهم على وجه الدقة ماذا تريد، ولكنها مع ذلك ليست تستثنيك من قائمة المدعوين للرحيل الآن، عذرًا يا سيدي فهي تظنك تحملها ما لا تقوى على احتماله، إنها خائفة ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا حيال ذلك.

والآن .. أرجو أن تسمح لِيّ بالانصراف .. فلدي الكثير من العمل لإنجازه .. شكرًا لتفهمك، لم تكن تلك هي إرادتي على أية حال ولعلك تدرك ذلك.

ابتعدت قليلًا وقد هالني ما سمعت، كان ما قالته هو آخر ما يمكن أن يرد في خاطري .. كان مفجعًا أن تنحو المرأة التي طالمت تمنت بقائي إلى جوارها للأبد هذا المنحى الصادم، عدت إلى سيارتي حزينًا مكسورًا بعد أن شعرت أن تلك المرأة قد حطمت كبريائي بلا رحمة، تملكني الغضب وجعلت أستجمع ذلك الكبرياء المبعثرين مدخل المنزل وفروع الأشجار وقد تمكن مني جرح عميق ،وبينما أحاول تضميده، استقر في نفسي بعض ما بقى له من كبرياء ،فغدوت أردد في صمت:

"قد تضطر أحيانًا للانحناء لتبعد تلك القطة التي طالما سعدت بالتمسح عند قدميك"

ولكن ذلك لم يكن كافيًا لإرضاء غروري، فعدت أسأل نفسي مستنكرًا:

أحقًا ما قالته تلك المرأة الشريرة؟ لا أكاد أصدق، أتراها قد قررت إبعادي هكذا بلا مقدمات؟ أيموت الحب موتًا مفاجئًا أم أن المشاكل والأزمات قد عصفت بكل تلك المشاعر دفعة واحدة؟

وإذًا فأنا كائن مُغيب .. أجل فأنا ما زلت أحبها رغم كل شيء، لم تراودني الظنون بأن قدومي إليها مختلقًا الأعذار كي أسترق النظرات لوقت قليل أو لكي أستعيد ذكرى تعيش معي دائمًا ‒ ما يمس الكبرياء ‒ بل إنني قد تركت كبريائي وحيدًا متوسلاً عندما قررت أن آتي اليوم إلى هنا وفي موعد لم نعتد اللقاء فيه، ترددت كثيرًا ولكني في النهاية أتيت مدفوعًا باشتياقي إليها.

الآن هذا دورك في الانتقام ‒ قلت محدثًا كبريائي المهدور تلك المرة ‒ أنا لم أستمع إليك، نهرتك، واتهمتك بأنك لا تملك عينين لترى عندما نصحتني ألا آتي الآن.

ظننت صلفك قد أوصد عينيك فلم تعد تبصر جيدًا، نهرتك بل أمرتك ألا تستوقفني الآن، ظننتها بحاجة إلى أن أكون بجوارها في تلك اللحظات الصعبة.

لكنني أقفُ أمامك مهزومًا فقد كنتُ المبصر الوحيد هنا، أما أنا فقد كنت ذلك المعصوب، ولكن رجاءً، كن حاضرًا دائمًا، ليس لك أن تغيب أبدًا، وإن غيَّبتُكَ.

(8)

منزل العائلة - ظهرا..

حضر الطبيب في الموعد المحدد في جدول زياراته، وكان قد شخصَ حالة الفتاة بعد أن انفردَ بها لبعض الوقت بأنها أعراض صدمة أو إحباط لم ترقَ لمرض نفسي، وهى أعراض قد تصيب الإنسان في أي سن، وإنه لا داعي للقلق إطلاقًا، وإنه يعدهما أن تسير الأمور على ما يرام، ولكن - قال للوالدين بعد أن غادر غرفة الابنة ¯ يجب أن أخبركما أولًا إنه ¯ في حالتها تلك فإن النضج والإدراك الكبير الذي يمتلئ به عقلها من جانب وما تعرضت له من انفعالات أو إخفاق في مواجهة مشكلة حادة أو موقف صعب من جانب آخر، وأنا إذًا أريدكما أن تساعداني للتعرف إليه ¯ هذا إن كنتما تعرفانه بالتأكيد - يغلبني الظن بأن تكون تلك هي الأسباب التي تركت لديها شعور بالإحباط تجاه موقف أو شخص ما، وربما يكون هذا الشخص قد خيب أملها.

سأل الأم بينما أدارَ وجهه نحو الأب إذا ما كانت الفتاة تفقد علاقاتها بأصدقائها سريعًا، وإذا ماكانت تتمتم أحيانًا بكلماتٍ

تعبر عن الغضب، سألهما إن كانت لديها تصورات وأفكار تبدو غريبة وخيالية؟ وإذا ما كانت تتمتع بقدرة غير عادية على الإدراك.

كانت تعبيرات وجههما توحي بإجابة محددة ¯ نعم أحيانًا - ردًّا على تساؤلاته وإن اكتفوا بإيماءات تعني ذات المعنى ولكنهم لم يروا فيما تبديه أمرًا غريبًا، حاول طمأنتهما بإمكان شفائها عندما لاحظ انزعاجًا وقلقًا قد انتابهما.

ولكنه طالبهما بأن يقوما بما يجب عليهما القيام به تجاه الابنة، نصحهما بتخفيف قلقها ومساعدتها في التواصل مع الآخرين والاهتمام بها بشكل أكبر، ما يجنبها العزلة التي تفرضها على نفسها أحيانًا، ويعيدها للتوافق مع من حولها من جديد .

نوَّه إلى أن الأمر ليس خطيرًا، هذا ما وصل إليه من تبادُل الحديث مع "ندى" منفردًا لبعض الوقت، كان مطمئنًا إلى أن ما بها إنما هو حالة عارضة سرعان ما تزول، نصحهما بمراجعة بعض الأمور التي قد تكون في حاجة إلى مراجعة، فمِن المؤكد أن شيئًا ما قد تسبب في صدمتها، ثم أردف بينما كان يَهِّمُ بالرحيل، أعدكما ستكون بخير، وداعًا.

كان كل شيء قد تحول رتيبًا مملاً وإن كان منظمًا، فقد انطفأ وميض لحظات الفرح الرمادية، تلك التي طالما تعلق بها الجميع، كان الظلام أكثر طغيانًا بل وأكثر قدرة على أن يجبر الجميع على ابتلاع مُرّ الهزائم والانكسارات.

(9)

خريف العام التالي – منزل العائلة

كان "الأب" قد اعتاد منذ أن حل فصل الخريف جالبًا السكينة والهدوء إلى الأرجاء بديلاً عن صخب ليالي أغسطس المجنونة، أن يجلس في شرفة منزله لساعات في الليل الطويل مستلقيًا فوق كرسي هزاز مختبئًا في مجمله داخل روب من الصوف مصطحبًا قهوته وسجائره بعد أن عاد مدخنًا مرة أخرى بعد توقف دامَ ست سنوات.

صار لا يملك سوى أن يستحضر اللحظات ويغرق فيها لدقائق قبل أن يستفيق دائمًا على صوت تلك المرأة التي كانت تحادثه من خلف باب منزل "غادة".

لم تستثنيكَ سيدتي من قائمة الراحلين – كانت تلك الجملة تذهب ابتسامة بلهاء كثيرًا ما أسرع في إخفائها إن مرت به الزوجة أو الابنة في لحظة مفاجئة، بل إنها كانت كافية أن تستبدل ابتسامته الغارقة في حلم رومانسي قد ولى، إلى تجهم

وغضب وكأنه قائد قد امتطى جواده في ساحة حرب معلنًا الهجوم.

ولكنهُ كان ما يلبث أن يعود سريعًا داخل ردائه بعد أن يجبره الشعور بالبرد على الاختباء داخله من جديد.

يلتهم سجائره دون أن يدري فيستعيد الهدوء للحظات، قبل أن يذهب في حلم آخر تُعزف فيه الموسيقى وتسكن "غادة" بين أحضانه بينما تمشط شعره بأصابعها ملقية برأسها فوق كتفه ..

يتذكر كم كان يستهويها كثيرًا أن تقبل قلبه بينما تتسارع نبضاته وكأنها تعيد إليه انتظامه ونغمته الأصلية، كانت تطمئن الدقات بيدها الحانية الناعمة، وبقبلات من شفتيها الرقيقتين وما إن تنسحب إحدى موجاتهما الغامرة وتهدأ، حتى تلقي تلك الموجة بجسديهما المنهكين عند الشاطئ.

ويبدو أن ظنون الابنة التي تذهب إلى أن الأثرياء ليسوا بحاجة إلى العمل قد تحققت أخيرًا، لم يعد هناك عملاء بحاجة إلى إبرام عقود في ساعات الليالي المتأخرة، بعد أن تحول أبوها في أشهر قليلة إلى رجل يبدو مسنًا واهنًا تملك منه الضعف فحوله إلى جندي مهزوم منسحب بعد أن كان قائدًا شجاعًا يتصدر الصفوف، بل إنه صار يفزع كثيرًا إن سمع صوتًا مفاجئًا يخترق هدوءهِ وعزلتهِ.

و قد فطنت الابنة والأم إلى حالته فصارتا تهمسان إن تحادثتا وتتنقلان في طرقات المنزل في هدوء حذر، بل وترحلان

دون إعلان إلا في مرات قليلة يكون فيها ذلك الإعلان ¯ بصوت خفيض- ضروريًا.

وقد تفاجأت الأم هي الأخرى بأن لديها وقتًا طويلًا لا يملؤه إلاالفراغ والملل، لم يعد البقاء في النادي الصحي ممتعًا، لم يعد جاذبًا بل كئيبًا مملاً، لا تمضي فيه الساعات مسرعة مثلما كانت تمضي من قبل، صارت أكثر اضطرارًا للبقاء في المنزل لوقت طويل وكأنها من تسعد بمتابعة شقائها والاطمئنان لبقائه.

فانقضاء النهار كان يعني انقضاء يوم جديد بمجرد عودتها للمنزل، كانا يتحادثان أحاديثٍ مقتضبة وكأن اقترابهما لأوقات طويلة قد اختصر كثيرًا من تلك الأسئلة التي طالما كانا يتبادلانها من قبل، لم يعد يبدي إعجابًا بسحرها وأناقتها كما اعتاد من قبل، لم يعد مجذوبًا بسحر عينيها ورائحة عطرها مثلما كان يفعل دائمًا بل إنه لم يعد يقبلها مرحبًا أو حتى مودعًا.

أما هي فقد كانت تمضي أوقات أمسيتها في الاستماع إلى الموسيقى الرومانسية وأغنيات الحب القديمة، تلك التي طالما حملتها بعيدًا إلى الماضي وكأنها سابحة فوق سحابة بيضاء تحيطها الزرقة من كل جانب.

مستلقية فوق سريرها الوثير تنتظر سقوط الأمطار بل وتنتظر غروب الشمس أحيانًا، وأحيانًا أخرى يطل عليها قمر هلالي باهت ما كان أبدًا ليكتمل، لم تعد تلقي بالاً بأي زمانٍ هي، لكنها وما إن تسمع صوت إغلاق باب الشرفة التي اتخذها "هو" مسكنًا حتى وقت متأخر من الليل، حتى تلقي بجسدها

الغض مستسلمة لذلك العابث القادم الباحث عن مرفأ للهرب تختبئ فيه داخله ويختبئ فيه داخلها.

ولكن ما إن ينبعث الدفء في الأرجاء حتى يجدا نفسيهما وكأنهما يواجهان تلك الأمواج دائمًا، بل وكأنهما يصارعان الغرق، يجاهدان للبقاء لكنهما في النهاية يستسلمان لنومٍ عميق بعد أن يهزمهما الوهن، يناما .. فيتسلل لهما النوم رغمًا عنهما غير عابئين بما سيحمله الصباح.

أما الابنة فقد بدأ ينتابها شعور بعدم الرضا من جديد، بعد أن أيقنت أخيرًا، أن البقاء مع من تحب طوال الوقت لا يجلب مزيدًا من الحب، بل إنه قد يحول لحظات اللقاء القليلة المفعمة بالحنين والاشتياق إلى لقاءات باردة رتيبة لا إثارة فيها وإن طال وقت اللقاء.

بدا لها أن والديها قد كبرا عشر سنوات في أيام قليلة، صارا كسيحين وإن لم يفقدا قدرتهما على السير، أبكمين وإن لم يفقدا القدرة على الكلام، ولكنهما مع ذلك كانا يسمعان جيدًا، ولكنهما ما كانا ليلقيا بالاً أبدًا لما يسمعان هكذا هو الإحباط دائمًا عندما يلقي ظلامه على فراع من نور فيحيله إلى وادٍ مقفر بائس شديد الظلام.

لم تكن أسعد حالاً في محيطها أيضًا، فصديقاتها لم يكن باستطاعاتهن أن يجارين تلك الأفكار التي تسكن عقلها، هذا إن هن أعاروها انتباهًا في الأساس، فهن كباقي الفتيات، مشغولات بتسريحات شعرهن وصبغات الألوان الثلجية، وألوان طلاء الأظافر التي يغلب عليها ألوان الأسود أو الزهري أو الأزرق،

ورسمات القلوب الصغيرة والدوائر اللؤلؤية المحاطة بأوراق زهر الياسمين التي تزين أظافرهن، ذاك هو ما كان يحوز اهتمامهم أكثر من أي شيء آخر!

وكانت إن يئست في أن تجد من يشاركها اهتماماتها من بين كل صديقاتها الباحثات دائمًا عن اجتذاب الفتيان وإيقاعهم في شركهن ..

شباكهن .. مغازلاتهن.

أما هي فقد كانت تميل دائمًا إلى أن تكون فتى، تمنت كثيرًا لو أنها امتلكت حريتها كاملة تفعل ما تريد دون قيود، دون أن يعني ذلك ميلاً مفرطًا للانطلاق والتحرر، فدائمًا ما تحول التقاليد دون بقائها خارج المنزل لوقت متأخر، في حين يستطيع أقرانها من الفتيان - الذين لا يملكون جديتها أو رجاحة عقلها - أن يظلوا متسكعين خارج منازلهم حتى ساعات الصباح الأولى دون أن يبدو ذلك غير عادي في نظر الجميع.

كانت تعلم جيدًا أن مجتمعًا مليئًا بالتناقض والادعاء لن يكون عادلاً أبدًا، ما جعلها ناقمة لكونها أنثى، ونادمة طوال الوقت على إخفاقها في إعادة السعادة إلى المنزل، بعد أن غابت عن أجوائه منذ فترة طويلة.

بل إنها كثيرًا ما شردت بذهنها بعيدًا تستعيد رغمًا عنها أحاديث أبيها وتبريراته حول مقابلات العملاء التي كانت تضطره للبقاء خارج المنزل حتى ساعات متأخرة من الليل حسب رواياته التي كانت تراها ساذجة مضحكة.

تذكرت كيف كان يختلق الحكايات، ولكنه كان سعيدًا مع ذلك، شغوفًا بأمي متشوقًا كعاشق لا تنضب مشاعره، وإن كانت حزينة في ذلك الوقت فلحظات حزنها وشقائها تلك ما كانت لتقارن بساعات البؤس الطويلة التي تقضيها الآن بينما تتراوح مشاعرها بيناليأس والملل.

في إحدى الليالي رأته عائدًا مع أضواء خيوط الصباح الأولى ،سمعت صوت خطواته في حديقة المنزل، أطلت من خلف ستائر نافذة غرفتها المطلة على الحديقة تستطلع الأمر، فوجدته يتراقص مع شجرة الياسمين على أنغام موسيقاه وأغنيته الخاصة، بينما تغمر السعادة قسمات وجهه الطيب، يحتضنها وكأنما يحتضن امرأته الآثرة خياله، يتمايل مع تمايلها، يغني ويبتسم كفتى يعيش أجواء حبه الأول!!

يبدو أبي وكأنه في نهاية عقده الثالث وإن تخطى عمره الحقيقي ما يبدو عليه سنه بعقد كامل، لكن تراقصه في حديقة المنزل قد هوى به إلى ما دون الثلاثين بكثير!

في تلك الليلة تملكها الاضطراب وعصفت بها موجات حزن مكتوم، صرعتها حتى أسقطتها، كانت كريشة يحملها الهواء لا تقوى على أن تضع جسدها فوق أي أرض أو تحت أي سماء ،صارت أعينها معلقة بجزء صغير من القمر المكتمل، القادم في جزء منه خلف زجاج النافذة في بقعة صغيرة أزاحَ عنها طرف الستائر، بقيت هكذا حتى عم النهار فأبتلع نوره ضوء القمر، قبل أن يهزمها النوم ويجبرها على الاستسلام التام.

***

(10)

صباح أحد أيام نوفمبر- منزل العائلة

كانت الزوجة لا تزال تغطِ في نوم عميق، وكأنت قد أطلقت العنان لجسدها الحاضر فيما غابت. فهرب منه من هرب وبقي من بقي متماسكًا صلبًا حبيس نافذة موصدة في قميصها الزهري الشفاف.

هى امرأة قصيرة، نحيفة، خفيفة الوزن كفتاة صغيرة، ولكنها قد جمعت في عينيها اللتين تلونتا بلون عسلي فاتح، جاذبية كل النساء، تترك علامات ما كان لها أن تمحى أبدًا، وتضربُ حصارًا لا إفلات منه، هي جنة من نار، إن كان لنارٍ أن تكون جنة، وهى نار من جنة إن كان لجنة أن تكون نارًا!

دخلت الابنة إلى غرفة الأم في هدوء، وكانت قد تهيأت للخروج في ملابس صباحية، وتزينت قليلًا فبدت ملامحها الجميلة الهادئة أكثر نضارة وإشراقًا، ألقت بشعرها الناعم فوق كتفيها فبدا حُرًا طليقًا، وإن لم تحرك سكونه بعض نسمات الهواء الخجولة القادمة من مبرد الهواء. أضاءت

الغرفة فاستيقظت الأم فزعة وكأنها قد عادت لتوها من كابوس مخيف.

سألتها: ما بالك يا أمي، فيما كل هذا الإغراق في النوم؟ هل كنتِ تحلمين أيضًا؟ ما لك والأحلام المزعجة؟ ظننتكِ من سيوقظني وها أنا من توقظك، ألم تسمعي صوت ضجيجه؟

لقد استيقظ أبي منذ وقتٍ وقد بدا وكأنه يحاول إيقاظك بما يُحدث من أصواتٍ مزعجة بينما يعد قهوته، ألم تسمعي ذلك أيضًا؟

بدت الأم وكأنها قد أوقظت لتوها من كابوس مزعج، فقد بدا وجهها الجميل شاحبًا متجهمًا، فيما تعرقت جبهتها واحمرت وجنتاها.

حلمٌ مزعج مرة أخرى؟ سألت الابنة ثم أردفت، ولكن لا وقت لدينا للأحلام المزعجة اليوم، فلديكِ الكثير من العمل لتنجزينه، عليكِ ترتيب كل شيء كالعادة، إنه موعد الحفل السنوي، لابد وإنك تذكرين ذلك جيدًا.

أنتِ بخير؟ سألت الأم، بينما كانت تنهض من فراشها، قربت يديها من وجه الفتاة قبل أن تضمها إلى صدرها برفق وحنين.

- ماذا دهاك يا أمي أنا دائمًا بخير، متى تطردين كابوس الوهم من نومك؟ متى يتوقف كل ذلك؟ هيا بنا .. اسرعي .. ربما كان اليوم هو يوم الخلاص، عليكِ أن تطمئني سأتكفل بتلبية مطالب أبي الصباحية، تلك التي لا تزيد عن مبادلته

حوارًا قصيرًا وترحيبًا وقُبلتين، مضى وقت تبريرات الانشغال مع العملاء في ساعات الليل الطويل، حسنًا .. لم أعد أسمع ذلك الحديث، ولكم أشتاقُ إلى سماعهِ مجددًا .

الآن عليكِ أن تسرعي، تذكري جيدًا أنه من الأفضل أن تنصرفي قبل أن يحمل قهوته إلى غرفة الاستقبال، فإذا ما مررتِ مغادرة بينما هو جالس هناك يعبث بأي شيء، فإنه بلا شك سوف يستوقفك في حديث طويل، فالوقت نهار وفي النهار لا عملاء ولا عقود!

- هل سيأتي إلى الحفل؟

- نعم سيأتي بكل تأكيد.

- وماذا عنهم أيضًا؟ أعني "غادة" و"آدم"

- سيأتون أيضًا، أنتِ لا زلتِ تسألين؟ يبدو أن النوم ما زال يملك بعضًا من غلبة على صحوك، أكدتُ لكي مرارًا أن الجميع في سبيلهم لتجاوز شهور الافتراق، أنتِ أيضًا ستتجاوزينها أليس كذلك؟

أرجو ألا تتركي مساحات أخرى لمخاوفك، بإمكاننا دائمًا أن نعيش سويًا في هوامش تسعنا جميعًا ونعرفها جيدًا، خيرًا من أن تقتلنا الظنون، هيًّا يا أمي، فلكم اشتاق إلى تلك الأجواء الاحتفالية العامرة بالموسيقى والرقصات الرومانسية.

أسرعي، ولعله من الأفضل أن تغادري من الباب الخلفي، فكري في ذلك مليًا، وداعًا وإلى اللقاء ..

لم تكن "جميلة" تستطيع تهدئة ابتساماتها الرقيقة التي راحت تعلو وجهها فور انصراف الابنة وكأنها قد حررت تلك المشاعر التي ظلت حبيسة مكبلة لما يقرب من عام.

كانت قد تحولت لآلة لا تملك التوقف إن أرادَ "كريم" تشغيلها، وقفت طويلاً أمام مرآتها وكأنما راحت تبحث عن تفاصيلها الصغيرة الغائبة عن عينيها منذ وقت طويل، عيناها تبدوان ذابلتين أرهقهما الحزن وإن لم تفقدا بريقهما الساحر، أما شفتاها الممتلئتان فكانتا على عهدهما دائمًا وأن حولهما لون أحمر الشفاة الداكن الذي وضعته فوقهما لتوها إلى عنقود من الكرز.

ما إن استعادت ذكرى تلك الأيام الجميلة الحافلة بالاهتمام، حتى عادت تبدو رقيقة حالمة في رقة أميرة "ويلز" الراحلة وبنفس مساحات حزنها التي لم تقوَ على إخفائها أبدًا، لم تنسَ أن تجهز فستانها الأسود الكلاسيكي في صدر خزانة ملابسها، مثلما جهزت كذلك حذاءًا أسودًا مرتفع الكعبين، فهى لم تغفل أن تستعد لتلك الليلة وكأنها طفلة في ليلة عيد، وإن كانت مخاوفها الحاضرة دائمًا ما كانت توسوس لها بأن أمرًا سيوقف ذلك كله.

راحت تزيل أحمر الشفاه فقد كان وضعه على سبيل التجربة إذ ليس من المناسب أن تزين شفتيها بهذا اللون الصارخ في الصباح، نظرت في مرآتها وابتسمت في رضا بينما راحت تطمئن لوجود ما اختارت من ملابس وأدوات للتجميل،

أسرعت في اختيار ملابس صباحية ترتديها، إيذانًا بالانصراف سريعًا من الباب الخلفي ..

مَرَ وقتٍ طويلٍ لم تذهب خلاله إلى مقهى "كوستا" القريب من منزلها، عادت إليها ذكرياتها فجأة فبدأت ترى وتشعر من جديد بأنسمة حياة قد توارات عن مخيلتها لفترة طويلة، عادت تستشعر جمال كل شيء، الأشجار و ورود المشتل وذلك المبنى العتيق المطل على ضفة النهر الملاصق تمامًا لمبنى سفارة أرمينيا،

جلست فوق أحد الكراسي المرتفعة المجاورة للواجهة الزجاجية للمقهى تحتسي قهوتها وتراقب العالم في الخارج وكأنها عائدة من رحلة سفر طويل، كانت لا تزال تذكر بعضًا من وجوه الرواد الذين اعتادوا القدوم دومًا إلى المقهى في الصباح

لكن أمرًا غير اعتيادي قد حدث فجأة، أهي تلك القادمة هناك؟ سألت نفسها بينما تراقب خطوات المرأة الجميلة التي لم تمهلها كثيرًا قبل أن تدخل من الباب

أشاحات بناظريها بعيدًا وكأنها لا تراها، أرادت بعض الوقت لتفكر ماذا عساها أن تفعل، هل تنظر إليها؟ هل تبتسم مرحبة؟ أم تنصرف الآن؟

ارتاحت لقرار الانصراف، كان عليها أن تبقي وجهها في الاتجاه الآخر حتى تنصرف متسللة إلى الخارج.

لكن الأمر بدا مستحيلاً فليس ثمة مدخل أو مخرج آخر للمقهى، كما إنها بدأت تشعر بسوء ما هي مقدمة عليه، إذا ما

أيقنت "غادة" أنها تتجاهلها أو تتحاشى رؤيتها، ثم إنها بهذا الفعل الساذج لا شك تعرض لقاء الحفل المسائي وفرص التقارب للانهيار، بدا لها هذاالأمر مروعًا فراحت تطرده بمجرد أن وردَ إلى مخيلتها.

ماذا أتى بها الآن؟، لم نتقابل على مدار أعوام في هذا المكان ولو لمرة واحدة، لم أكن أعلم أنها ترتاد المقهى ذاته، لعل الصدفة قد أتت بها إلى هنا اليوم وفي هذا التوقيت لتضيف اضطرابًا لاضطرابي، لكن لا بأس من إلقاء التحية أو المصافحة إذا اضطررت إلى أيٍّ منهما.

أظنُ أن خَيار الخروج دون إلقاء التحية أو المصافحة سيكون سيئًا للغاية، لا بأس في أن أتحلى بالهدوء والروية والأفضل أن يبدو لقاؤنا – إن قُدرَ أن نلتقي - وكأنهُ لقاء عادي، ولماذا عليَّ أن أحملهُ كل تلك المعاناة؟

إنها كما أرى تبدو هادئة متماسكة، لستُ أدري كيف تحتفظ تلك المرأة بهدوئها هذا؟!، ربما كانت من أولئك النساء اللاتي يطلقن غضبهن أولًا بأول ولا يصنعن له صندوقًا خشبيًا يودعونه بداخله، أجل من الأفضل أن يبدو الأمر تلقائيًا، أرى أن أستقر على هذا الاختيار من بين كل ما يدور في عقلي، حسنًا فلتتوقف رحلتي للبحث عن مخرج الآن.

تأهبتُ للانصراف وكنت قد أضفت هدوءًا مصطنعًا على ملامح وجهي، أخذت طريقي نحو باب الخروج بعد أن تركت نقودًا في حافظة فاتورة قهوتي.

لكنني لم أكن لأخرج هكذا ببساطة، فقد استدارات "غادة"

بالمصادفة على وقع صوت حذائي على الرغم من أنني قد حاولتُ أن أوسع خطواتي حتى أختصر المسافة إلى باب الخروج، كانت استدارة عفوية يفعلها الجميع إذا ما استشعروا مرور أحدهم بالقرب منهم.

تجهمنا لثوانٍ قبل أن يستعيد كلانا طبائع النساء، أولئك المتقنات أدوار التصنع وإفراط المجاملة، وعلى غير ما ظننتني عاجزة عن الخروج من هذا المأزق قبل لحظات، بدوت في لحظة وقد أتقنتُ دوري كاملاً، فروحت أعبر عن سعادتي بهذه الصدفة الجميلة بابتسامة تصل ما بين أذنيَّ!

قلت:

- مرحبًا، مَرَ وقتٍ طويلٍ منذ التقينا آخر مرة، هل أنتِ بخير؟ افتقد كثيرًا تلك اللحظات التي جمعتنا من قبل في حفل العام الماضي.

- مرحبًا، إنه لشرف لِيِّ أن ألتقيكِ في هذا الصباح وإن كان ذلك لن يكون عوضًا عن حضوري حفل المساء، هذا إن كان حضوري لا يزعجكِ، الحقيقة أن تلك هي المرة الأولى التي آأتي فيها إلى هذا المكان، وإنها لصدفة رائعة حقًّا.

- أشكركِ، وإنه لشرف لِيِّ أيضًا أن ألتقيكِ اليوم صباحًا ومساءً، تعلمين أن هناك الكثير من الترتيبات التي ينبغي إتمامها.

- لا تربكي نفسك يا عزيزتي فما زال هناك متسع من الوقت لترتيب كل شيء، ولتطمئني أيضًا فعملاء "المركز" لم يعودوا بحاجة إلى من يؤكد عليهم الحضور للحفل السنوي كالسابق، فلقد صاروا عملاء دائمين، أعرف بعضًا منهم وقد أكدوا على حضورهم الليلة، كما أنهم يقومون باستمرار على دعوة أصدقائهم للاشتراك في مركزكم التدريبي، اطمئني يا عزيزتي ليس هناك ما هو أكثر شهرة منه حاليًا في روعته.

- شكرًا لكِ على هذا الإطراء، وإنني الآن أكثر هدوءًا واطمئنانًا.

- ألا تجلسين إذًا لبعض الوقت، أتيت لاحتساء قهوتي قبل أن أبدأَ جولة تسوق قصيرة، بإمكانكِ مصاحبتي، سيارتي تنتظر بالخارج، أعلم أنك لم تحضري سيارتك إلى هنا، فمنزلك على بعد خطوات قليلة من المقهى.

- أجل، رأيت من الأفضل أن آتي إلى هنا لأحتسي قهوتي أولًا، وذلك على غير ما اعتدت أن أفعل منذ أشهر طويلة. قلت ذلك وقد غلبتني مشاعر الحزن، وكان إن اتخذت تلك المشاعر الحزينة موضعًا يروق لها في عينيّ، سرعان ما انعكس سريعًا في عينيها، وكأنهما قد أصيبتا بموجة الحزن ذاتها وفي نفس اللحظة.

أرادت أن تذهب ما اعترانا من حزن فقالت:

- ليس هذا يومًا للأحزان، في جولات التسوق تصرع الأحزان، أنا واثقة دائمًا من قدرتي على هزيمتها كلما لاحت ليّ رياحها من بعيد، بإمكانك أن تنضمي إليَّ دائمًا إذا أردتِ.

فلما لم أعرف بماذا أجيبها لاحقتني بقولها؟

- إنه لَقرار سهل لا يحتمل كل هذا التردد على أية حال!

استدعت "غادة" النادل ليحضر فاتورة قهوتها، تركت نقودًا في الحافظة، ثم اصطحبتني إلى الخارج، كان بعض من التردد ما زال حاضرًا في ملامحي، فأنا لم أستطع أن أتجاهل غرابة الدعوة سريعًا، وإن ظننتني في تلك اللحظات أكثر رغبة في التعرف على تلك المرأة من قريب.

فتلك فرصة لم تلح ليّ من قبل، ثم إنه قد ورد لذهني فجأة خاطرًا غريبًا فغدوت أتساءل ماذا عساني أجيب إن هي دعتني لزيارة منزلها؟ ربما سيكون ذلك مثيرًا حقًّا، ولكن هل أذهب؟ لماذا أنا مضطرة لفعل أشياء لا أختارها غالبًا؟!، وإن كنت أملك خيار الرفض على أية حال.

وهل أملك ألا أقبل تلك الدعوة إن وجهت ليّ، بينما أنا قد قبلت مرافقتها في جولة التسوق؟

الحقيقة أنني لم أقم بجولة كتلك منذ وقت طويل، ثم إنني أشعر برغبة دفينة في رؤية ذلك المنزل الذي تسكن فيه تلك المرأة، أتراها تحب الياسمين؟ ألديها بعض من شجيراته في حديقتها؟ أم أن الياسمين وحده لم يكن أبدًا كافيًا؟

استوقفت شرودي بقرار صارم ووجه مبتسم قائلة هيَّا بنا، عندها وجدتني أسيرُ في صحبتها متجهة إلى سيارتها دون تردد بينما وضعت على وجهي ابتسامة لم تكن تنقصها البلاهة.

***

(11)

حَكى لي الصديق القديم أن السيدة "غادة" امرأة مسكينة بائسة، وأنها على عكس ما تظهر دائمًا، فهي تخفي أحزانًا كثيرة ومآسٍ عميقة خلف تلك الابتسامة التي تتقن وضعها فوق شفتيها، لكن الانكسار الساكن عند أطراف عينيها يظل دائمًا هناك لا يخفيه شيء.

الحقيقة أنني لم أكن أهتم كثيرًا لحديثه عن أحزانها، وربما كان ذلك ما دفعه إلى التوقف عن الخوض في ذلك فيما بعد.

وإذ كنت قد تطلعت ذات مرة إلى أن يبدأ حديثًا حولها، إلا أنه كان مترددًا دائمًا حيال الخوض في ذلك، فلطالما ساورته الشكوك فيما إذا ما كنت راغبة حقًّا في أن استمع إلى هذا الحديث من جديد.

ولذلك فقد كان اختياره الدائم هو الابتعاد عما قد يسبب لي ضيقًا أو مللاً، ومنذ ذلك الوقت فأنا لم يعد لدي ما أعرفه حول تلك المرأة سوى ما يعنيني وحسب، الآن وبعد أن ألتقيتها من جديد، وبعد أن قضينا ساعتين في جولة التسوق، بدا لِيِّ

واضحًا كم هي عصبية متقلبة المزاج وإن حاولت إخفاء ذلك، لكن ما يدهشني حقًّا كيف أنه استطاع التأقلم مع تلك المرأة الغريبة؟ فأنا قد بدا لِيّ واضحًا أنها تعاني اضطرابًا ما دون شك.

وأنه لهادئ الطباع، وديع ومرتب، لا يلقي بالمشكلات قدر ماينفر منها نفورًا، فرأيت أن ما بينهما لابد وأن يكون نوع من التعاطف فاستحسنت تلك النتيجة قليلاً، ثم رأيت أنها ربما تكون الإثارة، أنا أعلم أن الاختلاف دائمًا ما يقود للافتراق، لكنه قد يكون مثيرًا للاهتمام ودافعًا للاقتراب أحيانًا، محفزًا وجاذبًا في أحيان أخرى وهو ما قد يبقي تلك العلاقات العصيبة قائمة إلى حينٍ.

أرادت أن نتوقف قليلًا في أحد المقاهي المطلة على النهر، لكنها قرأت سريعًا ما أبديتُ من قلق بشأن مرور الساعات سريعًا، فعادت تطمئنني إلى أنها قد أوكلت من يمكنه تدبر الكثير من الترتيبات التي تقلقني.

إنه يعلم الأشخاص المقيمين على إدارة الحفل ـ هكذا أخبرتني ـ فبدا واضحًا أنها قد هاتفت أحدهم عندما انزوت للحظات منذ دقائق قليلة.

كان الأمر بالنسبة لِيّ مقبولاً، فأنا غير مولعة بالتفاصيل، وأنا لم أكن لأفعل شيئًا إضافيًا في الحقيقة، ولكنها الرغبة الجامحة في أن يمضي الوقت بينما اترقب إنقضائه سريعًا حتى يحين المساء.

والآن إلى أين تأخذني؟

كنا قد بلغنا الظهيرة عندما كانت السيارة تسير ببطء إلى جوار الكنيسة التي تتوسط الشارع الذي تقطن فيه، منزل كبير أرستقراطي، تحيط به حديقة رائعة، سرنا في ممر يتوسط ضفتي الحديقة ثم صعدنا الدرج ،وما إن وطأت قدماها موضعًا أمام الباب حتى أتى صوتٌ غليظٌ فظٌّ لتلك السيدة التي تقوم على تنظيف المنزل أسبوعيًا - أخبرتني لاحقًا بذلك -

أزعجتني نبرة صوتها الفظة، لكنها راحت تضحك طويلاً، قبل أن تضع مفتاحها في الباب لتفتحه، وما إن انفتح الباب حتى توقف الصوت فورًا.

بدا الأمر غريبًا ومثيرًا للفضول، لكن فضولي لم يستمر طويلاً، حكت ليِّ عن أن تلك رسالة قد سجلتها بصوت الخادمة من أجل إبعاد من تريد إبعادهم كلما أرادت ذلك، أما وقد تصادف وجود الخادمة اليوم فليس ثمة ضرورة لرسالتها المسجلة!

أخبرتني أنها لم تنسَ أبدًا أن تضع إجابات للأسئلة التي قد يطرحها المتطفلون، أولئك الذين يظنون أن بإمكانهم الحضور إلى هنا دون موعد مسبق.

ضحكت مجددًا عندما أكدت ليِّ على أن بعضهم يظنون أنهم مستثنون من تحديد موعد مسبق لزيارة منزلي، لهذا فهم يصدمون كثيرًا.

جلسنا للحظات في غرفة الاستقبال قبل أن تبادر إلى دعوتي لرؤية غرفتها، أرادت أن أرى ذلك الفستان الأبيض الذي أعدته لسهرة الليلة.

لكنني لم أكن ألقي بالاً إلا لرؤية سريرها، لاحظتْ شرودي مرة أخرى، فراحت تسألني إن كنتُ لا أشعر بالارتياح؟ فأجبت مجاملة - إنه منزل مريح حقًّا - سألتني إن كنت راغبة في مشاركتها شراب فنجانًا من القهوة، أومأت بالموافقة فأمرت الخادمة بإحضارها.

كانت عيناي تدوران في المكان ويبدو أنها قد لاحظت ذلك فدعتني إلى غرفة نومها بينما كانت ترتب ما اشترت من ملابس راحت تحمل حقائبها إلى هناك تباعًا، ثم إنها أرادت أن تدعني أرى ما أردت رؤيتهِ .. وكأنها قد قرأت ما دار في رأسي، فأدركت كم بدا واضحًا ما أخفيت وأدركت كذلك كم أنا بلهاء فلا أفلح قط في إخفاء ما يدور في رأسي، ثم إنها امرأة والأسطورة تقول إن المرأة لا يمكنها إخفاء ما يدور برأسها في حضور امرأة أخرى.

ولما عجزت عن إخفاء تلك المشاعر الحزينة التي انتابتني للحظات، حتى لاحظت ذلك، فأرادت أن تحكي لِيّ فور دخولنا إلى غرفة نومها كيف أنها تعيش بمفردها في هذا المنزل الكبير بعد أن رحل الجميع، وقد كان زوجها آخر الراحلين إلى منزل آخر بعد أن أصبح استمرار بقائهما في منزل واحد أمرًا مستحيلاً.

كنت أحاول أن أتذكر بعض ما حكى لِيّ الصديق القديم لكن التفاصيل الصغيرة بقيت مجهولة بالنسبة لِيّ.

بادرتني بقولها بشكل مفاجئ أنها قد أساءت اختيار الزوج، وأنها كأي فتاة في سن صغيرة استهوتها مظاهر الأفراح الأرستقراطية، وغلبتها الرغبة في استحضار المشاعر المبهجة، حتى إنها كانت دائمًا ما تذوب عشقًا فيما يقوله ذلك الرجل من كلمات، تحملها في سفر بعيد ثم تضعها إلى جوار القمر.

وأنها قد خيل لها مثلما يخيل لكثير من الفتيات اللاتي لم ينضجن بعد، أنها تحب ذلك الرجل الممتلئة حياته بالأسرار والغموض، فضلاً عن وسامته الظاهرة وبنيانه الصلب.

لكن ذلك كله لم يدم طويلاً، فقد تبدل حال الرجل الذي كانت تعشقه وصار رجلاً آخر لم تعرفه أبدًا، تبدلت طباعه - أو ربما لم تتبدل تلك الطباع وأنها هي من كانت تجهل حقيقته البائسة. -

إذ بدا وكأن كل ما خطط لإتمامه هو الزواج من فتاة غنية من طبقة أرستقراطية، وعائلة راقية وأنه كان يتصنع طوال الوقت ما ليس فيه من الصفات الطيبة.

وبعد لم يكد يمر عام حتى تحولت حياتنا إلى جحيم، بدا وكأنه شخصٌ لم أعرفه، جافًا فظًا سيء الطباع لا يقيم لِيِّ وزنًا ولا يراعي لِيِّ خاطرًا، يريد فقط أن ينفذ رغباته وإرادته رغمًا عني، على عكس ما كان يظهر دائمًا من احترامٍ لإرادتي واختياراتي، صار ينتقد كل ما أفكر فيه حتى جعلني أفقدُ الثقة بنفسي تمامًا، وكان إن مرضت بعد عامين من إنجاب طفلتي، حتى ظن الجميع أنني على شفا الموت فاستسلمتُ تمامًا، فأنا ماكنت لأقوى على مواجهة شبحين يقوداني للنهاية، وأنا وإن

كنتُ لا أرى من مرضي سوى ذلك الجانب المجهول لوحش رأيت ما كتب عنه في الأساطير، فإن ثمة وحشًا آخر كنت أعرفه تمامًا ما زال يؤرقني وجوده بعد أن استمر زواجي منه ما يقرب من سبعة عشر عامًا.

قالت:

حملني والدي إلى باريس لتلقي العلاج وقد ظللت أنتقل ما بين المستشفى في العاصمة الفرنسية والمستشفى الخاص بالقاهرة لعدة أشهر، بقى زوجي خلالها غير مكترث بالأمر وكأن رأسه لم يعد يشغله سوى الاستعداد لما بعد موتي.

أجهشَتْ بالبكاء ولم تستطع التماسك طويلاً، كنت قد أدركت كم هو قاسٍ عصى على الاحتمال ما مرت به، بل أنني قد رقفت لحالها على الفور حتى إنني قد هممت باحتضانها، غير أنها لم تمنحني سبيلاً للاقتراب منها، فقد عادت لتتماسك من جديد، راحت ترسم ابتسامة يائسة، ولكن لا بأس إن كانت تلك الابتسامة سوف تجعلها تبدو قوية مثلما اعتادت أن تبدي دائمًا.

أردفت تقول:

بعد رحلة العلاج أراد الله أن أشفى من مرضي على غير المصير المحتوم الذي دائمًا ما ينتظر من مما يصابون بهذا المرض، وقد أصبح لزامًا عليَّ أن أتبع تعليمات الطبيب في اتباع نظام غذائي صحي ما بقى ليِّ من عمر، وأن أُجري تحاليل دورية

كل ثلاثة أشهر، وهكذا فقد قُدرَ لِيِّ أن أعيش مع تجربة المرض في كل حين، ولكن لا بأس طالما أنني لا زلت حية.

إن كانت تلك التجربة قد تركت في نفسي شرخًا عميقًا أصاب علاقتي بذلك الرجل الذي كنت زوجة له، فإنني ما أن تعافيت حتى توقفت تمامًا عن رؤيته، لكنه قد أَلَفَ صناعة الأزمات وأراد أن يشعل الخلافات أملاً في تحقيق مكاسب ما، لكن أبي عندما لاحظ أنني أعاني حياة قاسية وبلا نهاية مع هذا الرجل أراد أن يضمن لي حياة هادئة - حسب ظنه - قبل رحيله عن هذا العالم.

أخبرني أنني قد أسأت الاختيار وذكرني بأنه كثيرًا ما نبهني لسوء ما أنا مقدمة عليه، ولكن حبي الغبي لزوجي المخادع قد غيبني عن الواقع تمامًا وحملني الاندفاع وسوء التقدير إلى اتخاذ قرار خاطئ بالموافقة على الزواج به.

قال أبي:

- قد رأيتِ كيف أنه قد تركك في مرضكِ ظنًا منه بأن المرض سيقضي عليكِ أنتِ أيضًا، مثلما أودى بحياة أمكِ في ريعان شبابها، والآن أخبريني يا حبيبتي ماذا تريدين أن أفعل من أجلكِ؟ قالت:

طلبت من أبي طلبًا واضحًا وهو أنني لا أريد الاستمرار كزوجة ليوم آخر مع هذا الرجل، ولكنه أراد أن يبقى زوجي موجودًا في منزلنا الكبير ظنًا بأن ذلك يضمن استقرار لحياة

ابنتي وسعادتها في وجود أبويها إلى جوارها، ذلك المعتقد البالي الذي لم يجلب السعادة لأحدنا على الإطلاق.

بقي زوجي مقيمًا في الجانب الآخر من المنزل بناءًا على إقتراح أبي، وقد ظن أن ترتيب حياتنا على هذا النحو يضمن استمرارها بصورة أفضل، ويبقى على المظهر الاجتماعي الذي غالبًا ما يضحي الجميع بكل شيء من أجله بلا مقابل يذكر.

لكن القدر الذي كان رحيمًا لم تكن تتسع رحمته بابني الصغير، كنت أعيش كابوسًا بعد شفائي لما أدركت أن عاملاً وراثيًا يقف وراء مرضي، وكنت أعيش أسيرة لتلك المخاوف خشية أن يصيب المرض ابني الصغير.

لم تكد تمر أشهر حتى حدث ما تخوفت من حدوثه، كان أبي قد أعياه العمر الطويل فلم يعد قادرًا على مساندتي، وأصيب ابني بنفس المرض، لكنه لم يكن يمتلك إرادة الحياة، كانت خلافاتي الدائمة مع أبيه ومشادتنا الصاخبة قد تركت آثرها في حياته، فبدا انطوائيًا يميل للعزلة كارهًا للحياة.

حاولت مرارًا أن اثنيه عن إنطوائه وسعيتُ لأن أجعلهُ أكثر قربًا من أصدقائه لكن كل محاولاتي باءت بالفشل.

لم يستجب للعلاج وتدهورت صحته سريعًا، ثم رحل في النهاية، كانت قد تجمدت للحظات فلم يعد ممكنًا أن أتفهم ما تشعر به خلال تلك اللحظات.

ثم استطردت:

- بعد عام رحل أبي عن عالمنا فلم يعد لِيِّ سندًا في تلك الحياة القاسية، وظن زوجي أن تلك هي فرصته المواتية، لم يكن قد أدرك بعد أنني لم أعد تلك المرأة الرقيقة الطيبة، فأنا قد تغيرتُ ولم أعد كما كنت، ربما بقاء كلٌّ منا بعيدًا عن الآخر لفترة طويلة قد هَيَأ له أن بإمكانه أن يفرض شروطًا من جديد، ثم لا يلبث أن يعود لامتلاك زمام أمر امرأة محطمة مثلما أراد دائمًا، غير مدرك أنني قد أصبحت أكثر قوة بما مكنني في النهاية من إلقائه خارج المنزل وبلا عودة.

كان يومًا فظيعًا، لم أكن أتخيل أنني قد تزوجت رجلاً بتلك الخسة والوضاعة، حاول مرات أن يعود، بل وحاول أن يخدعني من جديد بشعارات حبه الزائف، لكنني قد تجاوزت ذلك إلى الأبد.

كانت تضحك ضحكات متقطعة شريرة ثم لا تلبث أن ترسم ابتسامة هادئة خلف ستار رهيب من الغضب بينما ما تزال قطرات صغيرة من الدموع تعلو وجنتيها.

شعرت بالخوف للحظات، ولكنني لم ألبث أن أحسستُ بالآسى من أجلها، فقد كانت تبكي بكاءًا مريرًا ثم تتوقف ثم تهدأ ومن جديد تبتسم ثم تغضب، بينما كان عليَّ أن أبدي لها دعمًا ومساندة كاملين - لم أكن أتصنع أيًا منهما - بينما كانت تحكي لِيِّ تلك القصة الحزينة، استأذنت في إحضار شيء من خارج الغرفة ربما لتذرف ما بقى من دموع دفعة واحدة، قبل أن تعود لتسألني عما إذا كان ينبغي لها أن تشعر بالذنب تجاه أولئك الذين أساءوا إليها؟ فلم أعرف بماذا أجيبها؟

كنت اقترب من مخدعها في تلك اللحظات التي كانت تغيب فيها، رحت أتفحصه كخبير بحث جنائي بل وأقرب أنفي من أغطيته أشتم رائحة أعلم أنها لم تعد هناك منذ أشهر لكني ما كنت أشعر بذات الشغف الذي ملأني من البداية حين رغبت في القيام بذلك.

فما أن أحسست بقدومها حتى توقفت فورًا عما كنت أقوم به، ابتعدت قليلًا ثم أستأذنتها في الانصراف، بعد أن طرحت عليَّ ذات السؤال من جديد.

لم أكن أدري سببًا لتكرار توجيهه إليَّ، وإن كنت قد تشككت للحظة أنها ربما تعنيني أنا أيضًا بسؤالها.

كانت منهكة تمامًا فاستسلمت لرغبتي، وكان إن أردت العودة إلى منزلي سيرًا على قدمي، فقد كنت بحاجة إلى الخروج من ذلك كله، شعرت بالندم على ذهابي إلى منزلها، فأنا لم أجنِ إلا المرارة، و إن كنت قد رثيت كثيرًا لحالها، ومع إشرافي على دخول منزلي كنت ما أزال عاجزة عن دفع هذا الشعور بالأسى بعيدًا، استرحت كثيرًا عندما لم أجد سيارة زوجي حيث اعتاد أن يودعها أمام المنزل، لقد رحل إذن، وذاك أفضل ما فعل، فلست بحاجة في تلك اللحظات إلى أن يلحظ ما بدا على وجهي من ملامح أشدُ بؤسًا من ذلك الذي اعتاد أن يراه في قسماته كل يوم.

***

(12)

أخذت أدور حول منزلها كالمراهقين حتى توقفت بسيارتي على مقربة منه، مرت فترة طويلة مذ قررت التوقف عن رؤيتي ومنذ حاولت التوقف عن تذكرها دون جدوى، كان حديث المرأة السمينة ما زال عالقًا بذهني، بل إنه قد ترك في نفسي جرحًا طال شفاؤه، لكن حنيني إليها وعشقي لها ما كان لشيء أن يغيره مهما طال ابتعادها ،وإن كنت لم أعد أراها أو أسمعها أو ألمسها فإن عبيرها لا يكاد يغادر مخيلتي حتى يعود فورًا.

ما إن رأيت سيارتها حتى تذكرت تلك اللحظات التي كانت تصطحبني فيها إلى المنزل، تذكرت ذلك العطر المذهل الذي بقي دائمًا عالقًا بيدها اليمنى القريبة من مقعدي، حتى أنني من فرط عشقي لها وله لم أكن أقبل يدها بل كنت ألعقها.

ذهبتُ بعيدًا مسافرًا في تلك الليالي، فكثيرًا ما كان يستهويها أن تقبل قلبي بينما تتسارع نبضاته بعد ركض طويل، كانت تتحسسه بيدها الناعمة وتقبله بشفتاها الرقيقتان فتعيد إليه

انتظامه ونغمته الأصلية، وكنا ما أن تنسحب إحدى موجاتنا الغامرة وتهدأ حتى نلقي بجسدينا المنهكين عند الشاطئ.

لكنني عُدت على صوت تلك المرأة فتذكرت كل شهور الهجران، قلت لقلبي: أحبها ما شئت كحبها للقمر والغابات والثلج والأسرار، ولكن أفتح عينيك أحيانًا لترى، ثم عد أدراج الجنون فربما لم تعد تحبك، يجب أن تفترض ذلك أحيانًا أيّها الأحمق.

يا للجنون! أتكون قد توقفت عن حبي؟ أحقًّا يبدِّد الهجر حبًا عظيمًا؟

كنت أردد ذلك حتى أنني سمعت ما كنت أردد بأذنيَّ فخلتني أهذي، وبينما كنت أنفخ سيجارتي بادرني بقوله:

- ها أنت من جديد يا صديقي العزيز، مر وقت طويل منذ لقائنا الأخير، قضيت معظم الشهور الماضية مسافرًا خارج البلاد، نزلت من سيارتي، صافحته بحرارة وكأنني قد افتقدته حقًّا، أو كأننا قد اعتدنا أن نلتقي دائمًا قبل تلك الليلة الحزينة، تلك الليلة التي قطعت أوصالنا فلم يعد يرى أحدنا الآخر.

بدت أجزاء من جسمه ممتلئة على غير العادة، وإذن فقد غابت عضلاته مدعاة فخره، وإن صار هزيلاً في معظمهِ، ازداد اللون الأبيض في شعره بعد أن احتل مساحات جديدة في مقدمة رأسه وذقنه، وصار شاربه رماديًا كثيفًا، بقيَ لطيفًا أنيقًا كعادتهِ، لكنه عاقلاً دائمًا، وهو ما أوحى إلى أنه بالطبع قد صار

أكثر ثراءً، كان يروقه دائمًا أن يرتدي بذلات غامقة اللون وها هو يرتدي إحداهن رغم حرارة الطقس.

بادرني بقوله - أنتَ لست أسعد حالاً - كانت حالة الرثاء التي بدت على وجهي وما علا بشرتي من تعب وإرهاق يبدوان واضحين للوهلة الأولى وهو ما دفعه لمبادرتي بإجابته تلك.

قلت:

- كنت أتجول قليلًا ثم توقفت لشراء السجائر.

- أنا أيضًا توقفت للسبب ذاته، يالها من صدفة.

بادر بالسير يستبقني إلى محل صغير لا يبيع سوى السجائر والشيكولا، اشترينا السجائر ثم تابعنا السير عائدين في اتجاه سيارتي، تخطتها خطواتنا بعد أن ألهانا حديثه لدقائق، غمرت وجهه فجأة ابتسامة طيبة قلما ارتسمت في ملامحه الجادة.

قال:

جميل أن تتجاور مساكننا مثلما تقربنا صداقتنا، هل أخبرتك؟ عدت من الخارج منذ أسابيع قليلة، قضيت معظمها في إتمام كل أعمالي المتراكمة هنا، أنتَ تعلم يا صديقي أن لا أحد ينجز أعمالك سواكَ، ولكن أخبرني كيف هي أحوالك، كان رائعًا أن تبلغني ابنتك الجميلة دعوتكم ليِّ لحضور حفل الليلة، إنها فتاة رائعة حقًّا وهذا ظني بها منذ وقت طويل، ستحضر "غادة" أيضًا أكدت ابنتك على حضور الجميع.

- أجل أظنها ستحضر، أنا لست واثقًا من ذلك بالتأكيد ولكني آملٌ أن تأتي، فلكم اشتقت إلى أوقاتنا التي اعتدنا أن نقضيها سويًا، أعني أن صداقتنا التي دامت لسنوات ما كان لها أن تغيب لسبب ما.

بدا وقد تجاهل ما قلت أو لم يُعِرهُ ما يستحق من الانتباه، ثم راح يخبرني بأنه كان في زيارتها منذ قليل بعد أن هاتفها مستأذنا في الحضور إلى منزلها، كان اللقاء الأول منذ تلك الليلة، أحضر لها أشياءً كانت قد أوصته بإحضارها قبل سفره.

سألني إذا ما كنا قد التقينا منذ لقائنا الأخير؟

وحين بدا أنني غير راغب في أن أخوض في التفاصيل، أراد أن يعفيني من إجابة سؤاله فمضى يقول على أية حال لم يبقَ سوى ساعات قليلة اتمنى أن تنقضي سريعًا، فأنا أتشوقُ حقًّا لأن نستعيد أوقاتنا الجميلة مثلما أتشوق لرؤية ابنتك، ولكني لست واثقًا كيف سأرتب أحوالي في الأيام التالية، أعني أن لديَّ الكثير من العمل الذي ينبغي إنجازه ومتابعته في مكتب الشركة بلندن.

كانت اللحظات التي أردتُ قضاءها في استعادة ذكرياتي معها منفردًا - قد مضت في غير ما أردت، بدد الصديق القديم ذلك الوقت، قبل أن ينصرف مستأذنًا حتى المساء.

وعندها بدأت الظلال في الانتشار مفترشة المساحة الأمامية لمنزلها العريق فقد أرادت الأشجار الكثيفة في محيطه أن تقف بصرامة لتتحدى ضوءالشمس في إصرار وعناد، وكأنها قد

ورثت عنادها عن صاحبة المنزل، خلت للحظات أن الظلام قد أرخى سدوله من حولي، ألهذا الحد صرتُ بائسًا حتى يشفق على ويرق لحالي؟

شممت رائحة النسمات الصيفية القادمة بين الظلال تلك التي كانت تمتزج برائحة أعرفها جيدًا، ترى هل سمعت دقات قلبي المجنون بينما كنت أمرُّ قريبًا من منزلها فأرادت أن يهدأ قليلًا؟

وإذ عبرت الشارع وابتعدت قليلًا حتى اندفعت عائدًا إلى منزلي ،خشيتُ أن يداهمني الليل بقدوم مفاجئ، وأردت أن يمهلني وقتًا لأنظر في مرآتي، فما أحوجني لرؤيتي اليوم بعد غياب طويل، ربما وجدت سبيلاً لإصلاح ما أفسده الفراق والهجر..

ما إن دخلت منزلي حتى أدركت على الفور أن أحدًا هناك، زوجتي على الأرجح هي من عاد، دخلت غرفتي فوجدتها هناك، ارتبكتُ وتوارات ما إن رأتني، كانت رغم مرور تلك السنوات تخجل أن أراها نصف عارية، عدت أدراجي وأغلقت باب الغرفة، ثم سألتها أن تخبرني عندما تفرغ من ارتداء ملابسها، كنت أعلم أن الأمر سيستغرق بعض الوقت ولكنها فرصة جيدة لشرب فنجان من القهوة.

اصطحبت قهوتي إلى الشرفة وكم كان مذاقها رائعًا حتى إن رائحة القهوة قد حملتني إلى ذكرى بعيدة، طالما ذكرتني تلك الرائحة بذلك اليوم الذي غيَّر حياتي قبل سبعة عشر عامًا.

في إحدى مقاهي مصر الجديدة التي اعتدت أن أقضي فيها بعض الوقت لمحتها تجلس هناك في إحدى زوايا المقهى بمفردها، كان جمالها ملفتًا وبينما كانت ترتدي قميصًا ذا مربعات زهرية وبيضاء تركت زِرُّه العلوي مفتوحًا فإن تنورتها البيضاء القصيرة كانت تضفي على جسدها نعومة قاتلة لا تقاوم.

كان الأمر بالنسبة لِيِّ لا يتعدى التعرف إلى امرأة جميلة، فقد كنت شابًا اعتاد حياة الليل والنساء دون أن أجد غضاضة في قضاء أوقات ماجنة مع معظمهن.

لكن المزحة قد تحولت إلى حقيقة واقعة لم أدرك أبدًا في أي وقت كيف قدر لِيِّ أن تكون تلك المرأة زوجتي في يومٍ ما؟

أنا لم أكن مولعًا بفكرة الزواج في أي وقت بل إنني كثيرًا ما كنت اتندر على المتزوجين لما كانوا يبدون عليه من إهمال فيما يرتدون ومن هموم ظاهرة لم يفلحوا قط في إخفائها، كنت أرى في ذلك الرباط الذي يدعونه مقدسًا قيدًا دائمًا لا يجوز للمرء أن يضعه في يديه بل ويرهن به حياته كلها، لكنها أرادت الزواج بي ونفذت ما أرادت رغمًا عني.

يبدو الأمر هزليًا ولكنه لا يعدو أن يكون سوى الحقيقة الكاملة، كنت كمن اعتاد إدمان عقار طبي، يتناول جرعة صغيرة على سبيل التجربة في البداية ثم يدمن بعد ذلك رغمًا عنه.

أعترفُ بأنني لم أقم وزنًا كبيرًا لأي من التقاليد البالية التي لم أرَها سوى هراءً، وأعترف أيضًا بأنني قد ذهبتُ مغيبًا لإبرام وثيقة زواجنا وكأنني كنت ذاهبًا لمشاهدة مباراة في كرة القدم.

اشتريت تذكرة الحضور واحتفظت بها طيلة تلك السنوات بعدأن عجزت عن تمزيقها لأسباب يفعلها الجميع، بالنسبة ليِّ هي الابنة وبالنسبة لهم هي الابنة أيضًا وربما الأبناء.

ولأن البدايات دائمًا ما تفيض بمشاعر مفعمة بالشغف قلما أمكن أدراك أسبابًا مفهومة لها، فإن ذلك الشغف لم يدم طويلاً، إذ تحولت الرغبة إلى فتور ثم اعتياد ثم لا شيء تقريبًا بعد أن فقد الشغف أسباب إثارتهِ.

وإن المرء ليدفن رأسه في صدر امرأتهِ دون أن يعني ذلك قط أنه يحبها، كثيرًا ما دفعني هجران حبيبتي إلى أن أغرق في أحضان زوجتي مختبئًا أو فارًا أو طالبًا للنسيان، لكنه نسيان قصير لا يلبث أن يعود بعد رحلة قصيرة في الفراش.

لكن الاعتياد يقتل الرغبة فلقد ألفتُ أن أعيش كما أراد الآخرون طيلة سبعة عشر عامًا، كنت خلالها قد فقدت اهتمامي بكل شيء حتى أنني لم أعد أعرف طوال تلك السنوات العجاف ماذا أريد وفيما أرغب.

وإذ انطلق صوت طلقات ملونة في السماء ابتهاجًا بعرس جديد ،أعادني صوتها المزعج من سفري الطويل إلى الذكريات، حتى صببت اللعنات على المحتفلين، ولكنني ما لبثتُ أن عدت

مرة أخرى إلى استكمال الذكريات بينما كنت ما أزال في شرفتي حيث اقتربت من الانتهاء من استعادة ذكرياتي المؤلمة.

أدركت حينها أن استعادة لحظات السعادة التي غمرتني في العامين الآخيرين ليست بتلك السهولة التي ظننت، فعدت مجددًا لإرسال اللعنات على مصطنعي البهجة المزعجة بعد أن حرموني الاقتراب من عذوبة ذكريات العامين الآخيرين.

اللعنة على من يبتهجون لعرس جديد، لا أحد يعلم كم تطول أيامه أو أيام بهجته!

أنتم جميعًا تستحقون مصيركم أما أنا فما أحوجني لذكرياتي التي تبقيني حيًّا إلى الآن، تذكرت الصدفة التي جمعتني بها دون مقدمات، كانت تتفاوض مع بعضهم لشراء سيارتها وكنت على بعد مسافة قريبة، أنا قد رأيتها من قبل ولكنها لم تلقِ بالاً ولم ألقِ بالاً أنا أيضًا، وأن بقيت ذكرى تلك الصدفة باقية في مكان ما لم أتبينه على وجه الدقة ربما لعام كامل قبل أن نلتقي ثانية.

هي امرأة لا يمكن تمرير نظرتها هكذا ببساطة، عرفت فيما بعد أين أبقيت على تلك الذكرى بعد أن أحببتها حبًا مجنونًا لم يعهده قلبي من قبل، كانت البداية مؤلمة لما عرفت أنها امرأة متزوجة، وأخبرتني بعد أيام من تعارفنا أنه ليس إلا زواج على الورق!

كنا نقترب من بعضنا البعض يومًا بعد يوم، حتى أصبح كلانا مغرمًا بالآخر، وتعددت لقاءاتنا المليئة بالدفء فلم نغب

عن بعضنا سوى لحظات، وإن لم تكن أيامنا تخلو من خلافات، فلسوء الطالع أن سمات طبيعتنا المزاجية المتغيرة متشابهة إلى حد بعيد، وإن ظل ما يجمعنا من مشاعر الحب ثابتًا لا يتغير رغم كل شيء!

كان أكثر ما يثير شعوري بالاستغراب أن الجميع يتحدثون عني ويكونون انطباعات لم أهتم أبدًا بمعرفتها، وسواء الذين أعرفهم عن قرب وهم قلائل على كل حال، أو أولئك الذين لا يعرفونني على الإطلاق فإنهم جميعًا قد بقوا مدعوون بلا دعوة لإبداء الاهتمام بالتفاصيل بشكل أو بآخر دون أن أفهم أبدًا سببًا لذلك، بل إن من رآوني مرة واحدة أو مرتين على الأكثر أعطوا لأنفسهم حقًّا في إبداء ما يظنونه صوابًا دون أن يجرؤ أحدهم على إظهار ذلك، فلم أعطهم المجال قط للتفوه بما قرأته مختبئًا خلف ستار ابتسامات مصطنعة في أعينهم.

أما أنا فقد بقيت الوحيد الذي حرم من إبداء رأيه في نفسه طوال سنوات من الغياب، فلما التقيتها مرة أخرى في ذلك اليوم الرائع سكنت خواء قلبي فعاد ينبض نبضات متناغمة وكنت أظنه لم يعد قادرًا على عزف تلك النغمات من جديد، ومنذ تلك اللحظة بدأت أشعر أن زوجتي تموت معنويًا بينما عدت أنا إلى الحياة وكأنني قد بعثت من جديد دونها، ولم يكن ذلك أمرًا سيئًا على أية حال!

فلما أدركت ذلك الموت المعنوي خلت الأمر منطقيًا، فأنا التقيتها في يوم عاصف شهد ظاهرة كونية لا تتكرر سوى مرة كل عشرين عامًا أو أكثر، إنه لأمر غريب حقًّا، كلما تذكرت أن

الوقت كان ظهيرة بينما كانت جالسة في المقهى، وكنت بدوري أرمقها بنظرات الإعجاب، وكان إن أظلمت الدنيا إظلامًا تامًا، ثم هبت رياح عاتية تبعها سقوط أمطار غزيرة أغرقت الشوارع وأسقطت عددًا من المنازل المتهالكة ورغم ذلك فإن ذاك الطقس العاصف لم يُذهب وطأة الحر، أتعجب أيضًا!

ولما كان الناس قد هرعوا للصلاة ظناً بأن ذلك هو يوم البعث!

و لما عرفت فيما بعد أن هذا ما فعلوه أيضًا عندما ضرب الزلزال البلاد قبل أعوام قليلة من اليوم المظلم، لم أكن استغرب أمرهم وإن خلته غريبًا في البداية، فأنا كنت خارج البلاد وقت وقوع الزلزال ولم أعهد اندفاع الناس للصلاة في زمن الكوارث أو هرولة النساء إلى الشارع بملابس النوم الساخنه.

كيف إذًا لم أتنبه لتلك العلامات؟ الحقيقة أن الطريقة التي تزوجت بها دون حفل زفاف أو مدعوين أو أقارب وأحداث ذاك اليوم الممطر العاصف الذي التقيتها فيه، ذكراني قبل عامين فقط بأن الأمر كله كان يبدو خياليًا بالنسبة لِيّ وكأنه غير جدي، أيقنت أنني كنت مغيبًا لا ريب، ولكني لم أفعل شيئًا يذكر حيال ذلك، فقد مرت سنوات منتصف العمر ولست أملك إرجاعها، فألقيت أسلحتي وعشت مستسلما حتى ظهرت المرأة الجميلة.

وإذ بدا طيفها في الشرفة وعلا وجهها ابتسامة رقيقة كنت كمن تأهب لاحتضانها بشوق عميق، اقتربت منها حتى إذا كنا

على وشك أن يتلاصق جسدانا انطلقت دفعة جديد من الطلقات الاحتفالية اللعينة، فأبرقت عيناي وارتعشت شفتاي رغمًا عني.

اندفعت إلى غرفتي قرعت الباب بقوة، ثم أدركت كم هو سيء ما أفعل.

تراجعت ثم أخبرت زوجتي أن الوقت يمر وأتبعت باعتذار على إزعاجها.

وعندها أخبرتني مستاءة بأنني قد أفزعتها، وأنها في سبيلها للانتهاء من ارتداء ملابسها، وقد صدقت فيما قالت بالفعل حيث لم تمضِ دقائق حتى دعتني للدخول للغرفة.

كانت تبدو جميلة كالعادة وقد أخبرتها بذلك فازدادت سعادتها ثم راحت تنظر في ثقة إلى المرآة وتستدير أمامها واضعة يديها على خصرها في كبرياء وكأنها تؤكد على أنني ما قلت سوى الحقيقة الواضحة.

ثم راحت تقترح ما تراه مناسبًا من ملابس لأرتديها، بدلة رمادية وقميصًا أبيضًا وحذاءًا كلاسيكيًا أسودًا، وفي حماس أخرجت البدلة من خزانة ملابسي ووضعتها على السرير وشرعت في إخراج القميص، فشكرتها على ذلك.

قلت:

- حسنًا سأذهب للاستحمام سريعًا فحملت منشفتي وطقم ملابس داخلية ووضعت عن جسدي بعضًا مما كنت أرتدي من ملابس وخرجت، قالت: بعد أن خرجت وكأنها تنبهت إلى ما

قضيت من وقت لم أكن أفعل فيه شيئًا .. ولكن لماذا لم تقم بذلك بدلاً من إضاعتك الوقت جالسًا في الشرفة؟ سمعت ما قالت وتجاهلته وكأنني لم أسمع.

جلست تحادث نفسها بصوت مسموع وكأنها على ثقة من أنني لازلت قريبًا بحيث أمكنني سماع ما كانت تقول .. ثم أردفت بصوتٍ خفيض:

- صرت غريب الأطوار حقًا، كنت أكثر سعادة قبل أن ألتقيك. اللعنة على الحب الذي يقودنا إلى الرباط المقدس دون وعي، فهو دائمًا ما يقودنا إلى خيارات خاطئة. نجملها ونحول سوءاتها إلى فضائل بينما ندرك يقينًا إنها ليست كذلك.

لم يكن من شيء ينقصني، إن شئت لاخترت أحدًا من أولئك الذين طالما تطلعوا لنظرة قبول أبديها لأحدهم، ولكنه قلبي الغبي الذي أحبه وكأن ذلك القلب مولع بالبحث عن شجونه، صرنا كغريبين لا يجمعنا سوى الفراش وكأننا نقتل أنفسنا مختبئين من الحياة في ظلمته، فإذا ما أشرقت الشمس عدنا غريبين مرة أخرى.

إنه يفضل أن يعيش متقوقعًا داخل شرنقة صنعها بشفتيه وأقدامه مثل دودة القز. لستُ أتذكر كيف يحرك يديه، أنه في الغالب لا يستخدمهما كثيرًا، أجل .. وإنه لأمر جدير بالملاحظة طالما أثار دهشتي، فعندما نكون معًا لا أستشعر لمسات يديه، فهى تتصلب وتصير يابسة جامدة لا أمل فيها ولا حياة.

كنت قد يئست من إنجاب أبناء، وقد احتجت إلى مرور أربعة أعوام قبل أن أنجب ابنتي، بعد مرات من الإجهاض.

أذكر أن الطبيب قد أخبرني أن الأمر يتعلق بعلاقاته المتعددة مع النساء ،

وليته ما أخبرني أبدًا، فقد كانت تلك لحظة فارقة، تبعها إحساس بغصة لم يفارقني أبدًا، كانت ابنتنا هي سبب استمرار ذلك الزواج إلى الآن، أعني أن اعتياد تلك الحياة لم يدع لِيِّ فرصة للبحث عن حياة أخرى، وهكذا تنقضي السنوات دون أن يفعل المرء شيئًا ذا قيمة.

كان عرسًا باهتًا فقيرًا لكني وقتها لم أعبأ كثيرًا لذلك، كان الحب مرة أخرى قد حملني على جناح الأحلام تلك التي لا تأتي أبدًا، ولولا أنني قد تداركت أن المشاعر لا تصنع الخبز إذًا لطالت أيام الشقاء والانكسار.

أنا من صنع الرخاء في هذا المنزل، أن من أعدت إحياء المنزل القديم المتهالك الذي كان على وشك الانهيار، ولو أنه انِهار إذًا لاستعادة صاحبه ولخسرت أنا كل شيء، ربما انتهى بنا الأمر إلى تسول قوتنا.

أقتربت من باب الغرفة وفتحته برفق، لم أشأ أن أُذكرها بطرقاتي المزعجة التي أثارها ضجيجها منذ قليل، فتوقفت لفورها عن الكلام همسًا، ولما كنت أشد حرصًا على أن تمر الدقائق دون صخب يعكر صفونا فقد اصطنعت ضحكة بلهاء وضعتها على وجهي حتى اتسعت إلى ما بين أذنيَّ.

نظرت إليَّ في دهشة جعلتني أعقد ضحكتي فصارت ابتسامة أشد بلاهة ثم انتهت بي رحلة المرح الزائف إلى البدء في ارتداء ملابسي متجاهلاً ما عداه.

وعندها سألتني:

- ألا يفترض أن تحضر ابنتي الآن أيضًا؟، فطمأنتها إلى أنها في طريقها إلى المنزل، نظرت إليَّ بغضب مكتوم ثم عادت تسألني من جديد وقد غلب الاستهجان على سؤالها في تلك المرة ولماذا لم تخبرني بذلك دون أن أسألك؟ منذ متى أخبرتك بعودتها؟ سعُلت قليلًا حتى تهدأ فقد أردت أن يسير كل شيء بلا عثرة سألتها بصوت خفيض يكاد لا يكون مسموعًا لماذا أنتِ ثائرة يا عزيزتي؟ أنا من هاتفها قبل دخولي إلى المنزل مباشرة، كنت أظنكما معًا، هدأت قليلًا فعاد النور ينبثق في صدر السماء، جلست وقد وضعت ساعديها على ركبتيها ثم أحنت رأسها قليلاً، لو كانت تعلم أنها خُلقِت لتكون هادئة إذن لما تركت تلك العصبية تتملكها فتذهب عنها جمالها العذب كماء وردي.

كنت أقول أنك تبددين جمالك بتوترك وانفعالكِ أحيانًا، أنا أكره الضجيج والصراخ وأنتِ تعلمين ذلك، حسنًا انظري كم أنتِ جميلة الآن.

ابتسمت قليلًا وقد عادت إليها بهجتها، ثم همت بالخروج إلى الشرفة تتعجل قدوم الابنة، أما أنا فقد بقيت أمام المرآة للحظات أضبط هندامي وأهذب لحيتي بعد أن استقرت طويلاً في هيئة باليه فصار شعرها أشعثَ.

عادت زوجتي إلى الغرفة منزعجة، أخبرتني أنها رأت صديقة ابنتي تصعد درجات المنزل بمفردها دون ابنتنا، كنت أحاول أن

أقنعها أنها ربما لم ترَها أو أنها توقفت قليلًا أو لربما أخّرها شيء ما قبل أن تتبع صديقتها للمنزل، لكنها ما كانت لتستمع سوى لهاتف الهواجس الذي يلازمها طوال الأشهر الأخيرة ..

تركتني وكأنها لم تسمع ما قلت ثم هرعت إلى باب المنزل تفتحه وقد تملكها الانزعاج تمامًا، أهلا .. أين ابنتي؟

كان ذلك أول ما تبادر إلى ذهنها فألقته في وجه الفتاة، كانت الفتاة المراهقة ذات العينين الواسعتين والشعر الأسود الغزير والبشرة البيضاء هي صديقة ابنتي الأكثر قربًا ونحن نحبها لذلك، لكن زوجتي ظلت تحتفظ دائمًا بذكرى صدمة ذلك اليوم الذي مرضت فيه ابنتي، وكيف أن صديقتها تلك هي من أخبرتنا عن انصرافها من الحفل، وقد ظلت زوجتي تستهجن فعلتها تلك، فهى لم تسرع لإخبارنا بما حدث لابنتنا، ولم تهتم كذلك باصطحابها إلى المنزل، غير أنني كنت أتفهم أن الفتاة ما كانت لتنصرف وتترك ذلك الشاب الذي تعشقه وحيدًا، فقد رأيتها تبادله نظرات الحب في ذلك اليوم قبل أن ترحل ابنتي من الحفل.

ثم إن ابنتنا دائمًا ما تصر على أن تبقى بمفردها إذا ما انتابتها نوبة غضب، فهي دائمًا ما تمعن في إخفاء ضعفها حتى عن المقربين منها.

رحبت بالفتاة ودعوتها للدخول فقد أربكتها كثيرًا مقابلة زوجتي، جلست ثم قالت على الفور أن ابنتنا لم تكن معها، وأنها جاءت لإخبارنا أمرًا أرادت دائمًا إخبارنا به غير أنها لم تكن واثقة من قدرتها على ذلك، وأنها قد اختارت أن تفعل الآن بعد أن قررت ذلك دون سبب مفهوم، وأنها لم تحتمل مزيدًا من الصمت بعد أن رأت بعيناها ابنتنا تجلس مع صديقها.

كانت زوجتي تحاول دائمًا مهاتفة ابنتي لكنها لم تتمكن من إتمام ذلك، فقد كان هاتفها يبدو مغلقًا .

سألت زوجتي الفتاة في دهشة إذا ما كانت تعني أن ابنتنا تعرف فتى وتصادقه، وإذا ما كانت تداوم على إحضاره إلى "المركز" دائمًا؟ وهنا صمتت الفتاة لبرهة ثم اغرورقت عيناها بالدموع، وسرت فيها رجفة خفيفة، اقتربت منها قليلًا ودعتها للهدوء فقد كانت فتاة رقيقة ولطيفة، نظرت إلينا تباعًا ثم خفضت رأسها وقالت في تردد.

- إنها في صحبة صديقي أنا

كنا ثلاثتنا نجلس في غرفة الاستقبال متقاربين، وما إن قالت الفتاة ما قالت حتى ضاقت الغرفة الفسيحة واقتربت جدرانها من مجلسنا بحيث إذا أراد أحدنا أن ينهض أو يتحرك ما أمكنه القيام ذلك.

بل ودنا سقف الغرفة وانخفض حتى كاد يطال رؤوسنا فيما نحن جالسين .

وتحولت روائح المساء ونسماته التي يحملها الهواء عبر الشرفة المفتوحة إلى أنفاسنا - كئيبة تصبغها الأحزان من جديد، أما وقد كان التوجس والمخاوف يسكنان فؤداي منذ شروق شمس هذا اليوم، وإن حاولت مرارًا تجاهلهما ثم غدوت استرجع الذكريات علَّ النهارالطويل يمضي، وأدلفت أطوي ما تبقى منه متعجلاً قدوم الظلام فيسكونه وكأني أتوسله أن يأتي في هدوء دون مفاجآت.

فإن اللحظة الأخيرة دائمًا ما تحمل دواع لمخاوفنا وكأنها ترقبنا طوال الوقت، تبتسم ساخرة، إذ تعلم أنها تملك اختيار أن تفعل بنا ما تشاء وقت ما تشاء، وها هي قد اختارت أن تفرغنا من كل أمل وأن تقربنا خطوات من المأساة!

حاولت جاهدًا أن أرفع سقف الغرفة وأدفع جدرانها الثقيلة، لذتُ بشرفتي ملاذي الذي لم أعد أملك سواه، جلست هناك وأشعلت سيجارة وأبحرت بعيدًا مهزومًا فوق مركبي التي لم يعد على متنها سواي.

هدأت الفتاة قليلًا، وقد حبست ما تبقى في عينيها السوداوين من دموع أذرفت الكثير منها منذ مجيئها، صارت تحكي كيف أنها تحب ابنتي، ولكنها قابلت ذلك الحب بالخيانة.

قالت:

كنت أشفقُ عليها من وحدتها فأردت دائمًا أن تكون معنا أينما ذهبنا، كنت أنا من يبادر بدعوتها رغم ضجر صديقي في بعض الأحيان، ورغبته في أن نكون بمفردنا حتى يمكننا أن

نطلق أرواحنا وأحلامنا تتلاقى دون خجل، كان يعدني دائمًا ألا يفرقنا شيء، طال ولعه بيِّ حد الجنون فرأيتهُ قدرًا جميلاً أرسلتهُ السماء ليكون إلى جواري دائمًا، لكن ولعه قد تبدل فجأة إلى فتور، لم يعد شغوفًا لرؤيتي، مهرولاً للاقتراب مني إذا أقبلت، بل صار هدؤوه قاتلاً و بلغ إهماله لي حد اللامبالاة، و أنني قد أيقنت لبعض الوقت أن ثمة دافعًا انتقاميًّا يقوده دون أن أدري أي ذنب اقترفت فأثار غريزة انتقامه دون داعٍ.

ظننت أنني ربما ارتكبت ما أغضبه أو ربما قد لُمته فيما لم يكن يملك فيه أمرًا، حاولت التقرب إليه، وأردت أن أفهم ما الذي حدث وما سر تبدله، ولكن دون جدوى، أين ذهب ذلك الحب الذي جمعنا؟

لكم هو أمر قاسٍ أن يتغير كل شيء وتتبدل المشاعر بل وتذهب بعيدًا بينما نشاهدها عاجزين، وتصغر شيئًا فشيئًا فلا نملك أن نقربها أو نمسك بها فنحول بينها وبين الاختفاء.

قضيت ليالي طويلة أتعذب، كان غموضه يقتلني، تمنيت لو أفهم ماذا حدث، عدت أتقرب إليه من جديد، وصرت أتنازل عن بعض كبريائي، أهاتفه فلا يجيب، فألتمس الأعذار الواهية، أقول ربما كان مشغولاً وربما كان مريضًا، ربما لم يسمع رنات الهاتف وربما لم ينتبه لرسائلي!

لا يقين سوى أنه لم يعد هناك لسبب كنت أجهله، قبل أيام قليلة سمعت تلك الفتاة تحادث صديقتها بينما كنت أقف غير قريبة منهما تقول وكأنها أرادت أن تسمعني.

أشفق عليها من هول الصدمة ففتاها يحب صديقتها، تنبهت لما قالت، بل إنني قد تلقيت الرسالة، ودون أن أنظر لمن أرسلتها بدأت أستعيد بعضًا من ذكريات الأيام الأخيرة، كانت ابنتك تتعلل بالغياب عن لقائي مراتٍ ومراتٍ بداعي مرضها، كنت أصدِّقها، وكنت أغفرلها غيابها بينما كنت في أشد الحاجة لمساندتها في تلك الأيام الصعبة.

وإذ عادت تبكي من جديد احتضنتها بقوة فلقد آلمني ما قالت أشد الألم ومسَّ جراحي فأثخمها، وكنت ما زلت واهنة أبحثُ عن الفرح فلم تمنحني اللحظات الأخيرة سوى مزيد من الحزن، اقتربت منها واحتضنتها كانت تبكي كطفلة لم تعد قادرة على تحمل المزيد.

طوقت الفتاة الطيبة بذراعي فجعلت تدفن رأسها في صدري وتقربني إليها وقد رق لها حالي بعد ما أصابني هول ما ألقته على مسامعي، وكنت أستجمع قواي فأبقيت رأسها مدفونًا في صدري، وحبست دموعي وجففت بعض ما بقي منها بأطراف أصابعي.

أردت أن أخفف من آلامها، وكنتُ غير واثقة تمامًا في صدق روايتها، ظننت أن هناك شيئًا ينقص تلك القصة فأنا لم أعهد في ابنتي ولعًا بالفتيان أو ميلاً رومانسيًا، بل إنها تغلب عقلها دائمًا.

قلت:

- ولكن يا حبيبتي ربما فهتمِ الأمر على نحو خاطئ، أعني أنه من الجائز ألا يكون كما تصورته، إنني لم أعهد في ابنتي ميلاً لأحدهم، بل إنني كثيرًا ما كنت أُنبهها لما تقترف من أفعال خشنة لا تتفق مع طبيعتها كفتاة، أعني مظهرها الخشن وآراءها الفجة أحيانًا، تلك التي تنكر فيها ما ينبغي أن تكون عليه كفتاة.

ربما أرادت أن تصلح ما فسد في علاقتك البريئة بذلك الشاب، إنهاقوية صلبة كحجر لا يلين، وإني لمندهشة لما قلتِ، أنا الآن لست أميل إلى تصديق ذلك تمامًا، ولعله من الأفضل أن نسمع منها ريثما تحضر.

تذكري أنكِ غاضبة لما ألقى على سمعك من كلمات تلك الفتاة التي ألقتها عامدة أن تملأ أذنيكِ، من الجائز أنها أرادت أن تحطم صداقتكما لسبب ما لا تعلمينه.

وربما اقترفتِ فعلاً أغضب الشاب أيضًا، إن المشاعر في عمركما سريعًا ما تتبدل، وإن ظننتما أنها مستقرة راسخة كصخرة في قاع النهر.

مرت لحظات من الصمت والهدوء ثم عادت السكينة إلى وجه الفتاة مقترنة بغضب دفين أخفته فيما كادت نظراتها أن تفصح عن أن ما سمعته لتوّها لا يعدو أن يكون هراءً، بدا وجهها جادًا حين قالت: "أنا واثقة مما ذهبت إليه، ربما كنتِ محقة سيدتي فيما تقولين حول جديتها وطباعها الخشنة، لكنني أظن أن ذلك لم يعد قائمًا منذ وقت ليس قصيرًا.

وإن المرء ليتبدل حاله في لحظه، أعترف بأنني كنت أتخيل ضمن ما تخيلت بأنها ستبقى دائمًا كما هي لا يغيرها شيء، لكن ما ترسخ في قلبي من خيال وما استقر في عقلي من اعتقاد ساذج حولها لما يعد قائمًا الآن، ولعلكِ تصدقينني عندما أخبرك بأنني قد رأيتهما قبل أن آتي إلى هنا مباشرة، كانا يتبادلان حديثًا وديًا أوقن فحواه وأعلم نبرته بل وأحفظ ملامح كلماته جيدًا.

ولكنني خشيت أن يهدم كبريائي إلى الأبد إن أنا تركت غضبي يعصف بهما، خفت أن استيقظ على فاجعة أن يبيح بحبها أمامي، أوربما أمعنا في إذلالي، راقبتهما من بعيد ثم رحلتُ في النهاية أجرُّ أذيال الحسرة والانكسار عاجزة عن فعل شيء، فلما أتيت إلى هنا كنت أتوقع مساندتكِ فأنا أعلم كم أنتِ رقيقة طيبة، ولكنكِ لا تصدقين روايتي وكأنني قد صنعتها في مخيلتي، بل وتفضلين منحها فرصة للتبرء من خداعها.

حسنًا يا سيدتي فليكن ما أردتِ، ولعلها تأتي الآن فأنا أعلمُ أنكم قد رتبتم لإقامة حفلكم السنوي الليلة، وأني إذ أعتذر عن إزعاجكِ فإنني آأمل أن يكون ظنكِ صائبًا، بل وأحلم أن يكون ما رأيت وسمعت وهمًا كبيرًا.

أما وإنني قد أصبحت لا أعول كثيرًا على مشاعري وخيالي فإنني سأنتظر أن تستطلعي حقيقة ما أخبرتكِ به، وعندها أرجو أن تبتعد صديقتي المقربة عن العبث بأحلامي فأنا لم أسيء لها يومًا.

والآن أرجو أن تسمحي لِيِّ بالانصراف فأنا أشعر بالعجز عن مواجهتها أو الخوض في تفاصيل تنال من كبريائي وكرامتي.

قلت بينما أودع الفتاة:

ستكون الأمور على ما يرام، اطمئني يا حبيبتي فأنا أستشعر ما أصابكِ من ألم، وإنني إنما أردت أن أتبين حقيقة ما تظنينه الحقيقة علني أصل إلى يقين فيما ذهبت إليه ظنونكِ، أو ربما كان هناك ما لا تعلمينه ولا أعلمه .. ولعلها تأتي الآن فتكشف عن ما في تلك القصة من غموض.

- حسنًا يا سيدتي سيكون رائعًا لو أن الأمر كان على نحوٍ غير الذي فهمت .. وداعًا.

مر بعض الوقت بينما كنت ما أزال قابعًا في شرفتي أنتظر قدومها، قبل أن أسمع صوت وقع قدميها المسرعة هناك، أعادتني خطواتها المتعجلة في حديقة المنزل من شرودي، فما إن تنبهت لصوت خطواتها في الممر الصغير بحديقة المنزل حتى وجدتها بداخله، لم أسمع دقات جرس الباب، فقد فتحت أمها باب المنزل حتى قبل أن تدلف إليه.

لابد وأنها كانت ترقب قدومها من خلف زجاج غرفتها، أو لعلها كانت تقف في مكان ما في الشرفة حيث أجلس، لستُ أدري أين كانت؟

نهضت ثم هممت بالتوجه إليهما، لكن زوجتي أوقفتني قائلة:

أرجو أن تُفسح ليِّ المجال لمناقشة الأمر أولاً، ربما كان ادعاءً لا أساس له.

- حسناً، ولكن أرجو أن تتاح ليِّ الفرصة للحديث إليها أيضًا.

- حسنًا، فيما بعد.

بدت ملامح الدهشة والاستغراب على وجه ابنتي، فهي من ناحية لم تكن تفهم ما يدور أو حتى تتوقع أن ثمة شيئًا ذا قيمة يستدعي كلما أبديناه من جد، فهي الهادئة الواثقة دائمًا لا يبدل هدوءها شيءٌ، رسمت على وجهها ابتسامة لم أتبين إذا ما كانت تسخر مما سمعت أو أنها تبعث الطمأنينة في نفسها حتى تفهم ما الخطب.

أما زوجتي فقد ملأتها الثقة في أن القصة ليست سوى محض ادعاء، لكنني بقيت على يقين لم أعرف سببه بأن قصة الفتاة تميل إليّ الحقيقة بشكلٍ أو بآخر أكثر من كونها كذبة، كنت دائمًا ألمس بعضًا من روح اِنتقامية لدى فتاتي الشابة، لست أدري إذا ماكان ذلك الوصف دقيقًا، ولكن على أية حال فإن في تلك القصة شيء لا أفهمه.

لماذا تختار التعرف على شاب تعلم تمامًا أن مشاعر حب تجمعه بصديقتها مثلما تجمع تلك الصديقة به، أجل لابد وأنها تعلم ذلك تمامًا، ليس بالضرورة أن تكون مشاعر الحب هي ما جمعهما معًا، ترى هل يكون الأمر كما ظنته زوجتي؟

ظللت أتعجل خروجهما من الغرفة لبعض الوقت حتى انتابني اليأس، كنت اقترب من بابها لعلّي أسمع بعضًا من

الكلمات أو النبرات الموحية، لكنني لم أكن أسمع إلا أصواتًا تنطق بما لا أفهمه ،شعرت بالخجل من ما كنت أفعل، فقررت التوقف عن ذلك والعودة إلى الشرفة من جديد، فأنا لم أكن أملك إلا الانتظار.

وهناك جلست مشعلاً سيجارة أخرى، فقد عم الظلام الدامس أرجاء المكان في غياب القمر، ولم يكن يُضِيءُ الأرجاء سوى بعضٍ من الأضواء الخافتة، أما أنا فقد كنت مشغولاً بمتابعة أمواج الدخان التي كنت أطلقها تباعًا من فمي، حاولت أن أرسم وجه "غادة" في الهواء بموجة من الدخان رحت أزفرها ببطءٍ وكأنني أرسم بريشة ي فمي فوق لوحة الفضاء صورة لحبيبتي الجميلة، لكن لوحتي ما إن تشكلت حتى أتت دفعة مفاجأة من النسمات وكأنها جاءت خصيصًا لتمسح صورتها ولتضيق ابتسامتي بل وتسرقها، فنجحت تلك النسمات المتسارعة في إخفائهما معًا في غضة طرف فغدا قلبي المسكين ينضح ألمًا.

ابتسمتُ ساخرًا وصببت اللعنات على النسمات في تلك المرة ،لكنني كنت ما أزال أقاوم مشاعر الهزيمة رافضًا الاستسلام، فأنا لم أتخلَّ يومًا عن عنادي مثلما لم أتخلَّ عن خوض حروبي حتى أبلغ الانتصار أو أموت واقفًا۔

أقبلت "جميلة" نحوي بوجهٍ شاحب وعينين غائرتين فهممت بملاقاتها واقفًا عند مدخل الشرفة، جمدت قليلًا ثم حاولت أن تضع ستارًا على وجهها تخفي خلفه مشاعر لم أكن أعرفها على وجه الدقة، ولكنها بالتأكيد مشاعر مغايرة لما حاولت أن تبديه،

أنا أحفظ تلك الابتسامة المصطنعة جيدًا، لكنني لم أشَأْ أن أخبرها بذلك، فقد رأيت أنه من الأفضل أن أستمع إليها أولًا قبل أن أضع الظنون على رأس الطاولة .

فلما أيقنت أنها لم تكن تدري من أين تبدأ بادرتها بسؤال أظنها كانت تميل لأن تبدأ من حيث تجيبه.

هل كنتِ على حق فيما ظننتِ يا عزيزتي؟ هل فهمت الفتاة التي كانت هنا منذ قليل الأمر على نحو خاطئ؟ إن كان ذلك ما سمعته من "ندى" فإنك بارعة بلا شك.

قالت:

أرأيت؟ إن الفتى يشكو سوء ظن فتاته وغيرتها الحمقاء حتى من المقربين منها، إنها تريده أن ينعزل فلا يحادث فتاة سواها، وإنها لتطارده أينما ذهب فلا تترك له مجالاً لوقت يقضيهِ مع أصدقائه – هكذا أخبرتني ابنتي.

وإنها لما أرادت أن تجعلها تَكُف عن غيرتها المجنونة لم تلقِ بالاً لنصائحها، فأرادت أن تصلح ما بينهما بعد أن ضجر الشاب من اتهاماتها له بأنه غير جاد وأنه لا يحبها.

أرادت ابنتنا أن تُصلح ما فسد في علاقة صديقتها بالشاب فكانت تتحين الفرصة لتنهي خلافاتهما وكان الشاب يحب أن يقضي بعض أوقات الأسبوع في ممارسة الرياضة.

أترى؟ إنها تلتقيه في مكان يرتاده العديدون في كل الأوقات – ليس لدي ما أخفيه يا أمي – كان ذلك كافيًا لأصدق روايتها،

ولأتأكد أن ما ذهبت إليه ظنون تلك الفتاة الساذجة ماهو إلا محض خيال.

كنت أستمع إليها بينما أنظر في عينيها محاولاً أن أتحرى صِدق ما تقول، بدا ليِّ ما قالته مقنعًا تمامًا، غير أنني بقيت مرتابًا لسببٍ لم أفهمهُ، كنت أحس أن هناك شيئًا ما قد أخفتهُ زوجتي، لست أدري ما هو، لكنني تظاهرت بتصديق ما قالته، ولم أعمد إلى مناقشة أيٍّ مما قالت، فقد أبقيت على مخاوفي دون أن أخبرها بأي منها حتى تخرج ابنتي من غرفتها.

لكنها كانت تحاول أن تبقي الأمر عندما أخبرتني به وحسب ،كانت تتعلل بأنه لن يكون مناسبًا أن أحادثها الآن فقد أوشك المدعوون على الوصول إلى مكان الحفل¯ أخبروني بذلك هاتفيًا ¯ قالت جميلة -

خرجت "ندى" من الغرفة بعد أن بدلت ملابسها وتزينت قليلاً، نظرت إليها فبادرتني بسؤالي عما إذا كنت أراها جميلة؟ استدارات ثم راحت تداعب أطراف شعرها بأصابعها وكأنها تعلن عن منتج لتنعيم الشعر.

سألتها:

- هل كان الأمر كما قصَّته أمك؟ أواثقة أنتِ من أنكِ لم تغفلي شيئًا لتخبريني به؟ قالت:

- لماذا لا نذهب الآن ثم نناقش ما تريد طرحه من الأسئلة فيما بعد؟ لقد أوشك الحفل على البدء، أعلم يا أبي أن تلك

القصة التي أتت بها صديقتي إلى هنا لا تستحق تلك الضجة التي أثرتما.

- أنتِ محققة يا ابنتي.

توقفت عند ما قالته "جميلة"، ثم أومأتُ بالموافقة على تأجيل الأمر لما بعد الحفل، ابتسمتا برضا. وقالت "ندى":

- كم تشعرني الآن بالدفء يا أبي.

احتضنتها ثم استدرت فسبقتها إلى الباب مصطحبًا "جميلة" وقد تعالت ضحكاتنا وكأنها قد أطلقت من محبسها بلا سبب مفهوم، بعد أن ظل ذلك السجان يحول بينها وبين إطلاقها وقتًا طويلاً، وبعد أن حرمتنا المحذورات إطلاق الضحكات المسموعة، بل حرمتنا الحياة أيامًا وليالي طويلة وقاسية ..

رن هاتف "ندى" فتوقفت ثم نظرت في هاتفها، خطت خطوتين للخلف ثم استدارت قليلاً، أجابت المتصل "أنا على وشك الخروج من المنزل" عندها قالت "جميلة" فلتلحقي بنا سريعًا، أمسكت يدي واصطحبتني في رفق إلى خارج المنزل.

هذه الفتاة الغبية لست أدري متى تفهم ما يدور؟ حاولت مرارًا أن أنقذ علاقتهما بعد أن أوشكت على الانهيار – قالت ندى – بعد أن أغلق الهاتف للحظة، والآن تلك هي فرصتها الأخيرة إن أرادت أن تعمل عقلها لبعض الوقت على عكس ما ترتكب من حماقات، إنها لم تعد تملك خيارًا آخر على أية حال، فإما أن تقبل أن أشغل أنا تلك المساحة الرمادية أو تشغلها فتاة أخرى، هذا إذا كانت تنتوي إلا تضحي بحبيبها إلى الأبد.

رن الهاتف من جديد، كانت "دينا" قد عاودت الاتصال، أجابت

"ندى"

- أنا قادمة الآن .. نعم .. فلنلتقي في ذلك المقهى المجاور للمركز حيث يقام الحفل، سأكون هناك بعد لحظات قليلة، لماذا لا تهدئين قليلاً؟ يجب أن تفهمي جيدًا .. لم يعد هناك مجال لمزيد من أفعالك الغبية، ظننتك أعقل كثيرًا .. كدتي تفسدين كل شيء بقدومك إلى هنا، لستُ طفلة حتى تأتي لتشكين لأمي، أنا لست مولعة بصديقك كما تظنين، إنما هو .. أعني .. سأطلعك على كل شيء عندما ألتقيكِ .. والآن يجب أن أذهب فإنهما بانتظاري وتلك هي أصوات أبواق سيارتهما تتعجل نزولي، انتظريني هناك .. وداعًا .

****

في المقهى ...

كانت "دينا" تنتظر قدوم "ندى" بذات الوجه العابث الذي التقت به والديها عندما كانت في منزلهما قبل مايزيد على ساعة واحدة، وقد اتخذت لنفسها مجلسًا في أحد أركان المقهى بعيدًا عن زحام رواده من الشابات والشباب في مثل عمرها.

غالبًا ما يضج المقهى بالعديدين منهم في المساء وحتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، فالمكان الذي يقع في شارع موازٍ لأحد أشهر الشوارع الرئيسية في الحي صار ملتقى للمراهقين والمراهقات وبعض الرجال الباحثين عن إطلالات جميلة لفتيات أنيقات وجميلات يفضلن اتخاذ أماكنهن على رصيف المقهى الذي يتمدد طويلاً في المساء بعد أن تغلق معظم المحال التجارية المجاورة أبوابها.

كان الأب قد دار دورتين عند المركز بحثًا عن موضع لسيارته قبل أن يظهر "صلاح" الذي يتولى مهمة إيداع السيارات بأحد الجاراجات القريبة، غادرت الأسرة السيارة في طريقها للصعود إلى الحفل واضطرت "ندى" إلى الذهاب بصحبتهم قبل تحين فرصة مناسبة تظنها ستكون سانحة بالتأكيد عندما يلتقي والداها كلًّا من صديقيهما "غادة" و"آدم"، اللذين كانا قد وصلا

بالفعل إلى هناك، وما إن تقابل الجميع حتى تسللت دون أن يراني أحدهم مسرعة إلى المقهى.

بحثت لثوانٍ بين رواد المقهى قبل أن ألتقطها جالسةً هناك في ذلك الركن الكئيب، ذهبتُ إليها، قابلتني بتجهم وغضب مكتوم، فدعوتها إلى أن نجلس بالخارج حيث نسمات سبتمبر المسائية وعطره وبهجة الحاضرين، فتعجبت لما قلت، لست أدري أكانت تنتظرني أن آتي إليها باكية نادمة؟

أنا لم أقترف ما أندم عليه، بل أظنني قد أسديت لها معروفًا لا تقدِّر قيمته.

- لن أجلس في هذا المكان الخانق ¯ قلت لها ¯ إن كنتِ تظنينني مجبرة على الانصياع لظنونكِ فأنتِ واهمة.

عندها نهضت مثل قطة تلهث وراء صاحبتها

كنا قد وجدنا لنا مقعدين قد خليا لتوهما فجلسنا حيث اصطحبنا إليهما ذلك النادل الذي يعرفنا جيدًا، لم يكن موضعهما الأفضل وإن كان هدوء المحيطين وسط أصوات ثرثرة رواد المقهى أمرًا جيدًا، فقد أتاح لنا ذلك الهدوء المتقطع فرصة جيدة ليسمع كلانا الآخر دون ضجيج.

قالت:

- رأيتكما معًا، كنتما تجلسان كحبيبين، لم أعلم أنكِ تواعدينه، لماذا تفعلين ذلك بصديقتك المقربة؟ أنا لم أمسِّك

بسوء بل كنت دائمًا أحرص عليكِ أكثر من الآخرين، أنتِ إذًا من تسببتِ في تبدل مشاعرهِ.

- هل أنتِ بلهاء؟ أنا لا أحب صديقك، ربما أعجبه اهتمامي بالاستماع لشكواه الدائمة من غيرتك المفرطة، وربما أعجبه هدوئي وثقتي بنفسي عكس ما تبدين عليه من اضطراب وتردد حين تلقينه، أنا لا أقصد تجريحك بالتأكيد، لكنني رأيته على وشك أن يهجرك رغم أنه يحبك، أنا واثقة من ذلك، فكري قليلًا في تغيير ما تبدين عليه، فكري في إخفاء غيرتك اللعينة التي تلازمك، فإنك تضيعينه دون أن تدري.

- هل بررتِ له ما أبديه من غيرة؟ أعني أنني إنما أغارُ لأنني أحبه.

- لم أكن لأبرر شيئًا من ذلك، ما كان تبريري ليعيدكِ إليه، أو ليعيدهُ إليكِ، لقد وجد من تستمع إليه، وإن لم أكن أنا فسيجد أخرى، والآن دعيني أسمعك درسًا مهمًا.

في حياة كل منا مساحة فارغة لا يملؤها شيء، يسمونها المساحة الرمادية، تحب المرأة زوجها، ولكن بمرور الوقت تتراجع عاطفتها نحوه، أكثر الرجال يرتكبون أخطاءً يحسبون نساءهم غافلة عنها.

انظري هناك .. إن الرجل يجلس مع زوجته وطفله لكنه لم يتوقف عن التطلع إليك منذ بدأنا حديثنا، وأن امرأتهُ تلحظ ذلك ولكنها تتجاهل ما تراه، أتراها تسترق النظرات إلى ذلك الرجل الوسيم الجالس بمفرده هناك؟

أن يكون حبيبك منشغلًا لبعض الوقت بالحديث إلى صديقتك التي تعرفين أفضل كثيرًا من أن يهوى فتاة أخرى ربما لا تهتم كثيرًا لأمرك، هل فهمت؟

- أحقًّا؟ لكنني لا أطيق أن أراه مع أخرى حتى وإن كانت تلك الأخرى هي أنتِ.

- عليكِ أن تختاري فتحسني الاختيار، توقفي عن غيرتك الآن واقبلي الأمر، فذاكَ أفضل الخيارات، إن أردتِ فسأتوقف عن الاستماع إليه، وقتها ستخسرينه إلى الأبد ..

نهضت لألحق بالحفل في اللحظة التي ظهر فيها صديقها غير قريب من مجلسنا، لاحظت أنني كنت أنظر طويلاً إلى حيث كان صديقها فاستدارت، فرأته، ودعتُها دون أن أُزيد على ما قُلت سوى كلمتين "اختاري الآن".

سرتُ خطوات حتى وصلت إلى مكان الحفل، دلفت من الباب فألقيت إلى مسامعي موسيقى رائعة وضحكات، امتلأ المكان بالبهجة مثلما امتلأت الحَلَبة بالراقصين، أبي وأمي يتراقصان بين الجموع، وغادة و"آدم" أيضًا، ما كل تلك السعادة التي سقطت فجأة على الجميع؟!

حاوطتني البهجة من حولي بل وغمرتني أيضًا، أغمضتُ عينيَّ بين لحظة وأخرى وروحت أحرِّك قدميّ وذراعي في مكاني وكأنني أُراقص أحدهم، في إحدى جولات إغلاق عينيّ وفتحها وجدت أمامي صديقتي "دينا" وقد اصطحبت صديقها إلى هنا،

أيقنت حينها على الفور أنها قد حزمت أمرها واختارت أن تصدق حقيقة ما أخبرتها به.

أما أنا فقد بقيتُ دائمًا دونما مساحة رمادية يشغلها أحد في هامش حياتي؛ فأنا لا يستهويني أحدٌ من أولئك الذين تذوب فيهم الفتيات عشقًا، فأنا أعشق عقل الرجل لا شكله الوسيم وقد ظللت هكذا ،أكثر واقعية واتساقًا مع ما أؤمن به، فصارت الأمور أكثر قبولاً من جانبي، ومع مرور الوقت أيقنت أن تمازجًا قد حدث بيني وبين ما كنت أستغربه من أفكار تحيط بي من كل جانب وفي كل مكان، وقد ساعدني في الانسجام مع تلك الأفكار أنني بقيتُ طويلاً بلا حبيب أهوى، فلم أُعاني صراعًا أو ألماً تفرضه حالة العشق التي تخترق قلوب العاشقين، ولم تكن هناك بالطبع امرأة أخرى تشغل ما تركت من فراغ رمادي في قلب حبيبي الذي لم يأتِ بعد.

أحيانًا أستوقف خيالي عندما يجمح فيضعني في قلب أحدهم ويضعه في قلبي كذلك، فأسافر بذلك الخيال إلى كل الأماكن التي تحيطني ويحتمل أن توجد بها فتاة .. أي فتاة.

ثم أعودُ سريعًا فأستوقف ذلك كله على الفور، فأنا لا أريد أن أفكر، مجرد التفكير في أن ثمة أشياء من هذا القبيل قد نضطر غالبًا إلى قبولها رغمًا عنا في يوم نصير فيه أكثر ضعفًا، وأحيانًا أكثر اضطرارًا لبذل تضحية من أجل من نظنهم لا ذنب لهم فيما اخترنا.

بعد مرور عشرة أعوام ..

في أحد مناطق الحي الراقي اعتادت ندى أن تعيش في ڤيلا فخمة أُلصق على أحد جانبيّ مدخلها الرئيسي قطعة من حجر البازالت و قد كتب فوق سطحها – ڤيلا الندى -

تزوجت قبل خمسة أعوام زواجًا تقليديًا من رجل أعمال شاب، وسرعان ما انجبت ابنتها فريدة.

و على الرغم من أن زوجها دائم السفر فإنها لم تأبه لذلك كثيرًا، فهي قد فعلت ما أراد والديها و ما أرادته هى أيضا دون تضحيات يفرضها الحب و دون لوعة و سهر و دون ألم و أحزان

فهي لا تتألم كثيرا لغياب زوجها إذ غاب و لا تنتظر عودته من أسفارة الطويلة البعيدة التي يذهب إليها بين فترة و أخرى و لا تدري حتى متى يعود إلى أن يهاتفها قبل عودته بيوم أو بعض يوم ليخبرها بموعد وصول طائرته.

لم تشعر فى أي من أوقات أسفاره قصرت أم طالت بأنها تفتقد شيئًا هامًا جدًا، فقد ملأت طفلتها الرائعة فريدة

حياتها، تلهو معها كل صباح و كأنها طفلة في مثل عمرها أربعة أعوام.

و بينما تعد ندى افطارهما تختفي فريده في أحد أركان الحديقة خلف أحد الأشجار المنسدلة فروعها حتى تكاد تلامس الحشائش.

ذاك ما يفعلانه في صباح كل يوم، تتصنع ندى عدم معرفتها أين تختبيء فريدة إلى أن تتعالى ضحكات الأخيرة عندما تستشعر صوت أقدام أمها و قد باتت قريبة جدًا من مخبئها.

يلتقي وجههما فتحضنان كلاهما الأخرى قبل أن تقود الأم ابنتها إلى مائدة افطارهما.

و في الظهيرة تذهب ندى إلى مقر الشركة الرئيس لترى كيف تسير أعمال زوجها كما يوصيها بأن تفعل دائمًا قبل كل مرة يسافر فيها.

و هناك يستقبلها حسام مدير أعمال زوجها و هو رجل في الخمسين من عمره، يأتي و في صحبته سكرتيرته الحسناء و هى فتاة مغرورة لجمالها الواضح و أنوثتها الطاغية.

لكن حسام رجل من بين رجال أسطوريين لم يعد يؤمن أحد أو يصدق بوجودهم، فهو رجل غريب لا يرفع عيناه ليتفحص جسد امرأه ولا هو من فصيلة الرجال الذي يلهثون دائما خلف الجميلات.

حالم هو كامرأه و إن كان رجلًا ناجحًا وسيمًا شديد التهذيب

تصافحه ندى فيسري في يدها لهيبا يشتعل في قلب هذا الرجل و يكاد يفجر شرايينه بينما عيناه زائغتان مسافرتان في حلم خيالي تعلم هى أنها ترافقه فيه.

في كل مرة تراه فيها يفشل فشلا ذريعًا في أن يخفي ما كتب في عينيه و لكنه صامت أيضا، يذكرها بالصديق القديم – آدم - ذلك العاشق الصامت الذي لم يتجاوز عشقه جدران قلبه إلى الآن.

أما هى فكانت دائما ما تشعر بالشفقة من أجله فهى تدرك كم يحبها هذا الرجل حبًا إغريقيًا لم يعد له مكان في حاضرنا فتميل من جانب إلى مساندته فيما يعاني.

و تميل بكل جوارحها للأسف من أجله فهى لم تكن أبدا مستعدة للخوض في تلك التجربة ليس لأنها لا تملك قلبا، فهى قد تغيرت.

و لكن لأنها تعلم جيدا كيف تكون النهايات فقد رأتها منذ زمن بينما تألم الأقربين إلى قلبها، و لكم عانت لذلك كثيرًا حتى سقطت صريعة آلام كادت تقتلها.

ثم أنها و إن كانت ترى أن حسام رجلا لا يطارد النساء كسائر قبيلته المعوجة فإنها لن ترهن قلبها أبدا في يد رجل قد تستهويه امرأة في يوم ما فتعيش بعذاباتها حتى النهاية.

مر أحدهم فأعاد ندى من خيالها الذي استغرقها لحظة، سحبت يدها من يد حسام منزعجة لما توارد بخاطرها وأشاحت

بوجهها بعيدا عندما وقعت عيناها على عيني السكرتيرة الحسناء القادمة لمصافحتها متجاهلة اقترابها.

سارت نحو باب مكتب زوجها الغائب ثم التفتت فجأة ونظرت في عينا حسام و كان لا يزال مسافرا معها في عالم بعيد،

فأشاحت عنه وجهها من جديد ..

و أسرت في نفسها ما انتوت فعله ..

ثم قالت بصوت مسموع بينما لا تشير إلى شيء بالذات

كلا .. لن أفعل ذلك .. أبدا.